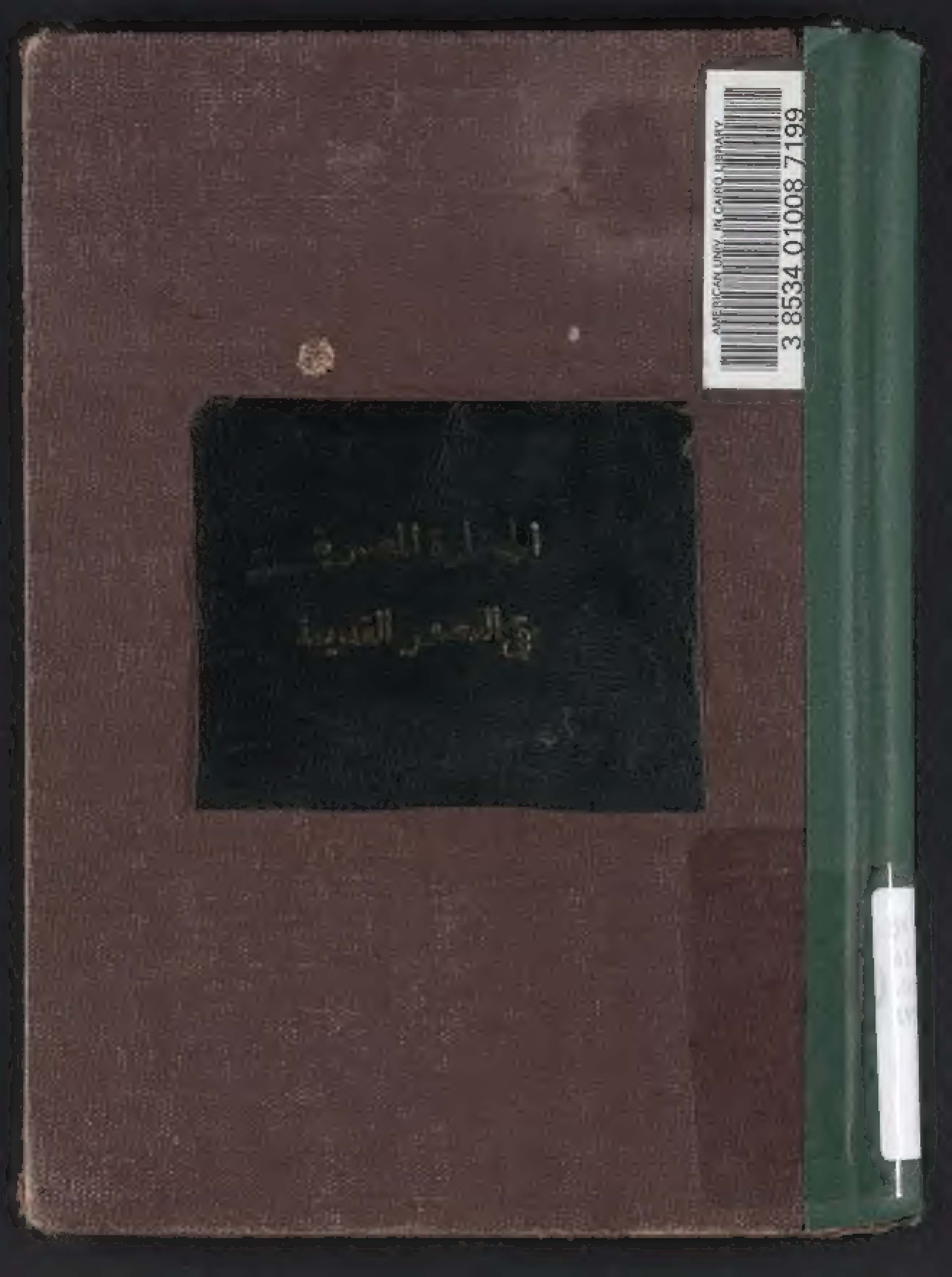
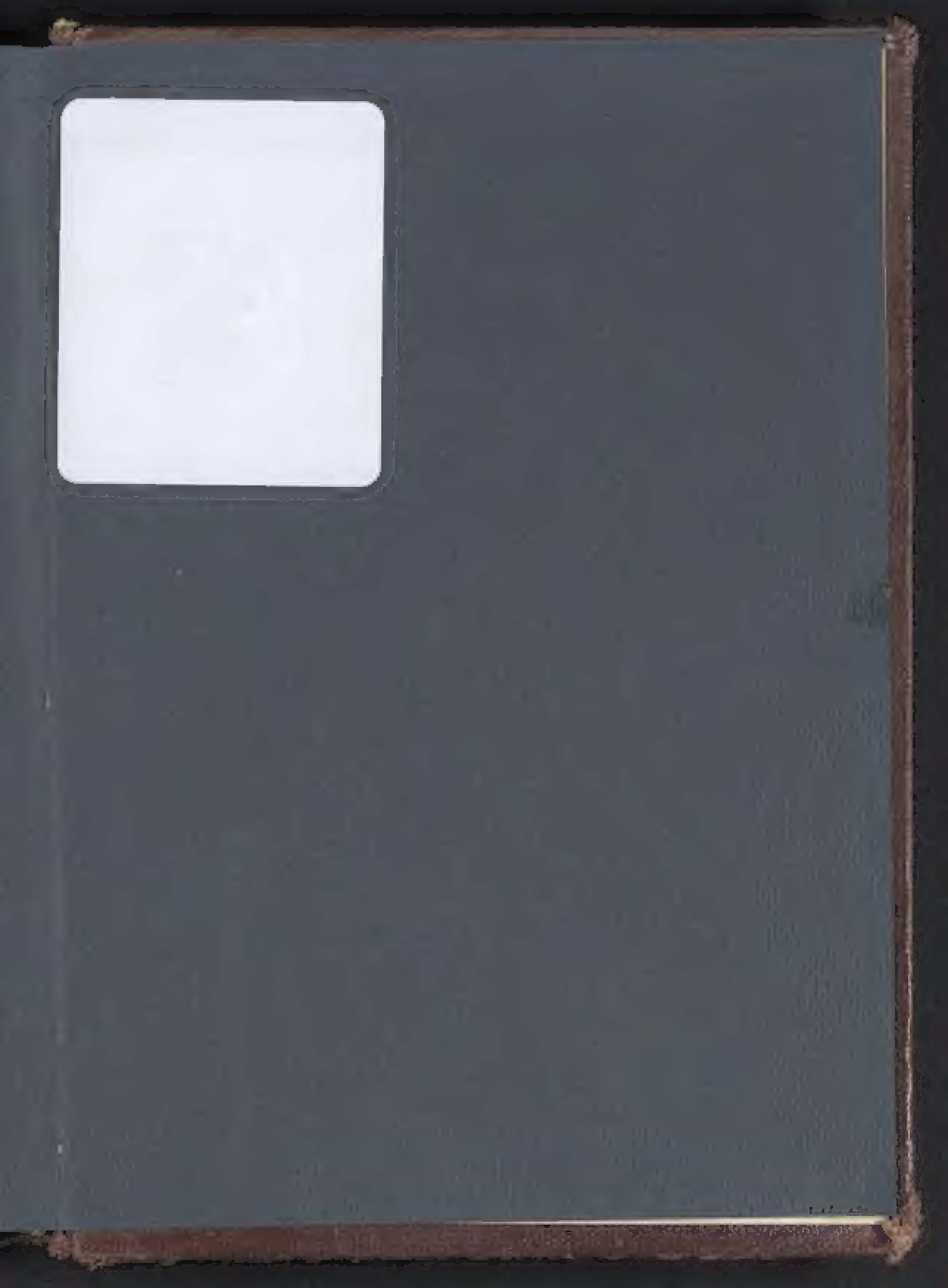

الحضارة المصرية
في العصر القديم
AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01008 7199





الحضارة المصرية فى العصور القديمة

وضع

عبد السلام عبده

بمصلحة خفر السواحل ومصائد الاسماك

الطبعة الأولى

١٩٣٤

الثمن ٧ صاغ

مطبعة صلاح الدين بالاسكندرية

الحضارة المصرية في العصور القديمة

وضع

عبد السلام

بمصلحة خفر السواحل ومصائد الاسماك

الطبعـــة الأولى

١٩٣٤

الثمن ٧ صاغ

مطبعة صلاح الدين بالاسكندرية



المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لست أزكى نفسى ، إذا قلت إن لى - كما لكل إنسان شاعر بحيويته - رسالة فى الحياة . وأعتقد أن خير رسالة تؤدى ، هى التى تبعث فى النفوس روح المجد ، وتوحى اليها بسيال حب السيادة والرغبة فيها والعمل عليها .

وسيراً على هذا المبدأ ، قد بدأت فى أداء رسالتى بوضع كتابى السابق « رب الحرب أو نابليون الأول » ، لأنى أعتقد أن نابليون هو ألمع نجم انبزغ فى التاريخ الحديث ، وجمع بين الجندية فى أجل معانيها ، والسياسة فى أبعد مراميها .

وعوّلت على الكتابة فى سيَر عظماء الرجال ، وأعلنت ذلك لقرائى فى كتابى الاول ، لاعتقادى أن الحديث عن عظماء الرجال يولد فى النفس عظمة الرجولة .

وتمشياً مع خطتى التى أشرت إليها ، دبجت سفراً يتضمن حياة « نلسون » أمير البحر الانجليزى ، الذى أكسب انجلترا السيادة المطلقة على مياه العالم ، والذى جمع من صفات

الجرأة والاقدام والشعور بالواجب ، ماجعله أسوة حسنة لكل نفس تنشد المثل العليا .

إلا أنني كمصري ، يشعر بمدى الروح الجديدة التي ابتدأت تتغلغل في أنحاء البلاد ، وتوحي الى كل عقل والى كل قلب ، العمل لانهاض مصر والسمو بها الى مستواها الماضي ، رأيت أن أؤجل نشر كتابي عن « نلسون » وأن أخرج لمواطني كتابا شاملا لتاريخ مدنية أجدادهم القدامى ، ليحيطوا بما فيه من مفاخر ، ومن أخطاء ، فيستخلصون العبر من الأخطاء الماضية ، ويستمدون وحي البطولة من تراث أجدادهم التليد ، فالأمم التي تجهل ماضيها ، لاتأمن العثرات في مستقبلها .

وللمصريين الحق في أن يفتخروا بأجدادهم ، الذين تناولوا مختلف نواحي الحياة ، ولبسوا شتى صورها ، وكانوا خير قدوة تحتذى ، من مئات الأجيال إلى اليوم ، فازدهرت وأينعت شجرة المعرفة في عهودهم وتناولت منها الشعوب الناشئة ، فكان هذا التراث الخالد نواة المدنية ومبعث الحضارة .

فالى كل مصري يحن الى ذكريات أجداده ، ويتطلع إلى حضارتهم ، التي لم ولا ولن تدانيهم فيها أمة من أمم الأرض قاطبة ، أدلي بما جادت به قريحتي ، راجياً أن أكون قد

وفقت إلى وضع حجر - وإن كان صغيراً - فى صرح الثقافة العتيد .

وإن يكن لهذا الجهد المتواضع ، دَيْنٌ فى عنق قرائه وأرادوا أن يوفوه ، فليكن شكراً عاطراً الى حضرات الذين ساهموا فى هذا الكتاب قبل إخراجه . وأخص بالذكر منهم صديق وأخى محمد افندى محمد زيتون ، فقد كان لتشجيعه ومساعدته أبلغ الأثر فى نفسى وفى كتابى ؟

اسكندرية فى مايو سنة ١٩٣٤ عبد المجيد سالم

مراجع الكتاب

Pitrie — *History of Egypt.*

— *Arts and Crafts.*

— *Ten years Digging in Egypt.*

Breasted — *Ancient Times.*

— *The History of the ancient Egyptians.*

Wallis Budge — *The Nile.*

— *The Literature of the Ancient Egyptians.*

— *The Book of the Dead.*

Baikie — *Ancient Egypt.*

Seignbos — *Ancient Civilisation.*

Cambridge — *Ancient History.*

Marvin — *The Living past.*

H. R. Hall — *The Ancient History of the near East.*

الفصل الاول

المدنيــــة الانسانيــــة

ماهيتها وأدوار نشوئها

اتفق المؤرخون ، على تعريف المدنية الانسانية ، بانتقال الانسان من عيشة الوحشية فى الغابات ، إلى معيشـــة المدنية فى المدن وما يماثلها من جماعات كبـــيرة . على أنه من الصعب فى الواقع ، تعريف المدنية تعريفا كاملا . وخير الطرق لفهم المقصود منها . هو أن نقارن بين حالتى الانسان المتمدين والغير المتمـــدين . أو بعبارة أخرى بين حالة الانسان المتوحش ، التي لايزال أثرها موجوداً ، وبين حالة الانسان الذى يعيش فى العصر الحاضر . فنرى أن الفرق شاسع جـــدا من جميع الوجوه الحيوية ، فى مستوى الحيـــاة الأدبيـــة والمادية والاجتماعية ، وفى كل مجال للحياة الانســـانية . وإليك بعض مميزات للانسان المتمدين على الانسان الغير المتمـدين :

فالانسان المتمـــدين اكتسب بتجاربه فى عصوره المختلفة معلومات كثيرة ، وهذه المعلومات مرتبة ترتيبا عقلياً منطقياً ،

بحيث أصبح سهلا عليه تطبيقها على الوسط الذى يعيش فيه، وعلى الأحوال التى تحيط به، وعلى البيئة التى يسكنها. أما الانسان الوحشى فهو عارى العقل كما هو عارى الجسد.

والانسان المتمدين يعيش بين أمم وشعوب متعارفة، ومرتبطة بأمتن الروابط واقواها، كالرابطة الاقتصادية مثلا. أما الانسان المتوحش فيقطن بين جماعات قليلة تكاد كل جماعة منها تكون منفصلة انفصالا تاماً عن باقى الجماعات.

وقد تمكن الانسان المتمدين بقدرته المادية من التغلب على كثير من العوامل والعوارض الطبيعية التى تصادفه فى طريقه، مما تعذر بالطبع على الانسان الأول ساكن الكهوف والاحراش.

مما تقدم نرى أنه من الصعب أن نحدد تماماً الفرق بين الانسان المتمدين والانسان المتوحش. ولقد أراد كاتب أن يحصر المدنية فى جملة واحدة فقال «من البلطة المصنوعة من الحجر الى الآلات البخارية» - مثال مادى محسوس فى غير ما حاجة الى برهان.

رسمنا بالقلم السريع شيئاً عن ماهية المدنية. والآن لنحاول أن نذكر أحدث المباحث التى قام بها العلماء بشأن ظهور الانسان على الأرض ومنشأ مدنيته. وان كان

لايزال البحث عن أحافير الانســـان الأول ، الذى عاش على هـــذه الأرض لايزال مســـتمراً فى كل مكان ، ولا يمر يوم إلا ويكتشف فيه العلمـــاء أحافير بشرية جديدة ، ترجع منشـــأ المدنية قرونا إلى الوراء . والسؤالان المعضلان اللذان يشغلان اليوم بال كل عالم هما : اين بدأت حضـــارة الانسان ؟ ومتى بدأت ؟

ولقد أصاب علمـــاء الآثار بعد الحرب قسطا كبـــيراً من النجاح ، إذ توالت اكتشـــافات الاحافير فى كل مكان وأجمعت كلها على ان عهد المدنية الأول كان فى بقعة من الأرض بين مصر والهند ـ ولعلها هضاب فارس أو مايجاورها .

ويقال بوجه الاجمال ، إن الحضارة بدأت عند ما أدرك الانسان أن فى وســـعه الحصول على كفايته من الغذاء بزرع بذور أنواع برية من الحبوب كالقمح والشـــعير والذرة وما أشـــبه ، وبعبارة أخرى عند ما اكتشف فن الزراعة . وتدل الآن القرائن المختلفة على أن ذلك الاكتشاف تم قديما جـــدا ـ أى منذ نحو عشرة آلاف ســـنة ـ وهذا أقدم من كل تاريخ كان يفرضه علماء الاجتماع لاكتشاف الزراعة حتى الآن .

على أن الانسان لم ينتقـــل من طور صيـــد الأسماك والحيوانات ، الى طور الزراعة بوثبة واحدة ، بل قضى فى ذلك

الأحقاب الطويلة . ولمـــا اكتشف فى الزراعة ، وضع حجر الأساس لبناء صرح الحضـــارة ، وقام هذا الصرح بعد ذلك على عـــدة أركان هى تقسيم العمل ، ومقايضـــة السلع ، وبناء المدن .

وقد جرى العرف ، على اعتبار الركن الأخير - أى بناء المدن - بدء مراحل المدينـة . وفى الواقع أن اتفاق عدد كبير من الناس على بناء عدة مساكن فى مكان واحـــد للاقامة معاً كان بدعة جديدة فى نظام حياة الانسان الأول ، وكانت هذه البدعة تقتضى إحداث إنقلاب عظيم فى عدة مناح من مناحى حياة ذلك الانسان ، لكى يتفق نظام معيشته الجديد مع بيئته الطارئة ، وأهم وجوه ذلك الانقلاب نشوء النظام والحكومة .

وبشروع الانسان فى سكنى المدن ، وصـــل إلى مرحلة جديدة من مراحل نشوئه . ولدينا الآن البراهين القاطعـــة على أنه وصل إلى تلك المرحلة منذ ستة آلاف سنة وأن أقدم مدن العالم المعروفة كدمشق وأثينا وروما وقفط وغيرها ،حديثة العهد جـــداً بالنسبة إلى العصر الذى بدأ فيه الانسان بتشييد المدن ، وأن مدنا كثيرة ظهرت فى العالم فى الأزمنـــة الغابرة ولم يبق لها أثر سوى العشب الذى ينمو اليوم على طلولها . وهذا دليل على أن الفناء يدرك المدن كما يدرك الأفراد .

ولا بد لنا من القول هنا بأن للبحث عن منشــأ المدنية أسلوبين ، يقضى أولهما بتتبع آثار تلك المدنية من أقدم أزمنتها فصاعدا ، ويقضى ثانيهما باستقصاء تلك الآثار رجوعا إلى الوراء أى أن فريقا من علمـــاء الاجتماع يدرسون تاريخ المدنيـــة منـــذ ظهورها فقادما ، وفريقا آخر يدرسون ذلك التاريخ منذ النقطة التى وصلت اليها المدنية راجعا . وإلى الآن لم يتقابل ذلك الفريقان ، لأن ثغرة عظيمة لاتزال تفصل بينهما ، وهما يحاولان سدها لاكمال السلسلة . وهذه الثغرة هى فى الحقيقة أهم أطوار النشوء لأنهـــا تتناول الطور الذى انقلب فيـــه الانسان من (عبد للطبيعة) إلى (مستعبد للطبيعة) كما يعتقد .

ولايضاح ما تقدم ، نقول إن بعض علماء الآثار يبحثون عن أقدم الأحافير البشرية على رجاء أن يتمكنوا من تحـــديد الزمن الذى ظهر فيـــه الانسان على الأرض ، وتتبع نشوئه ورقيـــه . هؤلاء هم أتباع أســـلوب الأول الذى أشرنا إليه . وأما أتباع الأســـلوب الثانى ، فانهم يدرسون تاريخ الحضارات المختلفة ، راجعين بها خطوات إلى الوراء . على رجاء أن يتقابلوا مع أتباع الأســـلوب الأول عند تلك المرحلة التى لاتزال مجهولة من مراحل نشوء الانسان . ونعنى بها النقطة التى انتقـــل عندها من مخلوق يعيش فى الكهوف والغابات

ويشتغل بالصيـــد إلى مخلوق آخر يعرف الزراعة ويسكن المدن. وقد أسفرت مباحث الفريق الثانى عن الرجوع خطوة جديدة إلى الوراء. إذ ثبت على وجه لا يقبل الشك، إن الانسان كان، كما تقدم، يسكن المدن منذ ستة آلاف سنة. على أن كونه سكن المدن منـــذ تلك المدة لا يعنى أن ذلك كان أول عهده بالمدن. فان هنالك قرائن جليـــة تدل على ان بعض مدن العالم كانت منـذ ســـتة آلاف سنة مزهرة وقد بلغت أوج مجدها، وأن مدينة «أور» الكلدانية مثلا (وقد ورد ذكرها فى التوراة) كانت منذ ســـتة آلاف سنة، كبيرة جداً لا يقل عدد سكانها عن أربعمائة الف نفس، ان لم يكن أكثر، ولـكى تبلغ المدن هذه المرتبـــة من العظمة والرقى، لابد ان الانسان سكن المدن قبل ذلك الزمن بكثير.

ومما يجدر بالذكر أن أشر (Usher) رئيس أساقفة انجلترا سابقا، زعم أن الله خلق العالم سـنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد. أى منذ نحو ستة آلاف سنة. وبنى زعمه هذا على حوادث ورد ذكرها فى التوراة. ولا ريب أن حسابه هذا خطأ، وليس بين علماء الدين من يسلم به، لأن التاريخ قد أثبت بوجه لا يقبل الشك أنه فى ســـنة ٤٠٠٤ قبل الميـــلاد كانت بلاد مصر وما بين النهرين ذات حضارة راقيـــة، وكانت ضفاف النيل

والفرات سهولا كثيرة الخصب والماء . أضف إلى ذلك أن اتباع (الأسلوب الاول) الذى سبقت الاشارة إليه ، قد عثروا على أحافير بشرية قديمة وعلى كهوف كان الانسان يسكنها منذ نحو عشرة آلاف سنة . وفى خلال المدة الواقعة بين ذلك التاريخ وبين أول عهد الانسان بالمدن (وهى مدة لا تقل عن أربعة آلاف سنة) كان الانسان الأول - ولعله من أصل أسيوى أبيض اللون - يضع أسس المدنية الحاضرة . .

ولنتتبع الآن جهود العلماء للكشف عن تاريخ الانسان الأول الذى كان يسكن الكهوف قبل فجر المدنية إلى الزمن الذى اكتشف فيه فن الزراعة . ولا يخفى أن لعلماء الأنثروبولوجيا (علم وصف الانسان) نقطا حلية يبدأون منها مباحثهم الخاصة بالحوادث التى وقعت قبل زمن التاريخ المعروف . ولدى علماء الجيولوجيا براهين تثبت أن العصر الجليدى انتهى فى غربى أوربا منذ نحو عشرة آلاف سنة . وانتهاء هذا العصر هو بدء مرحلة مهمة من مراحل نشوء الانسان ، وقد كانت أوربا يومئذ مأهولة بعدد قليل من السكان يعيشون على الفطرة ويصطادون الأسماك والحيوانات ولا يعرفون شيئا عن الزراعة أو الغزل أو النسيج أو صناعة الفخار أو المعادن أو ما إلى ذلك من مظاهر المدنية . وكانت جميع آلاتهم وأدواتهم

من العظام والحجارة . ولم يكونوا يسكنون فى بيوت مبنية ، بل كانو يعيشون فى الكهوف والغابات أو فى العراء وتدل جميع القرائن على أن الزراعة لم تعرف فى غربى أوربا حتى الألف الثالث قبل التاريخ الميلادى، مع أنها كانت معروفة عند المصريين قبل ذلك بنحو ألفى سنة على الأقل . ولما تعلم سكان أوربا الزراعة ، كان المصريون قد فرغوا من بناء أهرامهم فكانوا يسبقون الأوربيين بمراحل . وهذا يثبت لنا أنه من العبث أن نبحث فى أوربا عن منشأ مدنيتنا فانها لم تنشأ هنالك بل فى الشرق ..

أما سكنى الكهوف فلم نكن قبل سنة ١٩٢٥ نعرف عنها شيئاً يستحق الذكر . ففى تلك السنة كان شاب من متخرجى جامعة اكسفورد (يدعى تورفيل بيتر) يقوم بالبحث عن الآثار فى كهف من كهوف فلسطين على الساحل الغربى من بحر الجليل ، فعثر فى الكهف على أحافير قديمة وأدوات حجرية ، ظهر من فحصها علميا ، أنها ترجع إلى حوالى ٣٠٠٠٠ سنة قبل التاريخ الميلادى أى أن عمرها إثنان وثلاثون ألف سنة ، أو أكثر من ذلك . وقد ثبت من تلك الأحافير والآثار أن أهالى فلسطين فى ذلك العهد كانوا يشبهون الشعب الذى كان يسكن أوربا ثم انقرض ويعرف بالشعب النياندرتالى .

وفى السنوات ١٩٢٨ و ١٩٢٩ و ١٩٣٠ توالت سلسلة من الاكتشافات المدهشة ، وهى تدل على تاريخ الشعب الفلسطيني ، الذى كان يسكن الكهوف منذ ٣٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد الى حوالى سنة ٨٠٠٠ قبل الميلاد ، وقد تمت جميع هذه الاكتشافات للآنسة (دوروتى جارود) التي تعتبر من أقدر علماء الأنثروبولوجيا فى هذا العصر . فقد نبشت كهما بعد آخر من كهوف فلسطين ، وأشهرها كهف على المنحدر الغربى من جبال الكرمل ، يطل على سهل شارون ، الذى ورد ذكره فى التوراة ، والذى يصل إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط .

ففى هذا الكهف وجدت الآنسة (جارود) أحافير خمسين شخصا من رجال ونساء ، يمثلون الشعوب الأولى ، التى كانت تقطن البلاد المجاورة للبحر الابيض المتوسط ، ووجدت أيضاً مع تلك الأحافير أدوات مختلفة مصنوعة من حجر الصوان ، وبعضها نصال وقواطع قد تثلمت على وجه متماثل ، ولها بريق خاص لايمكن أن تكون قد اكتسبته إلا من قطع الحشيش أو سنابل القمح أو الشعير ، التى تحتوى على نسبة كبيرة من مادة السليكا ، وهذا دليل يكاد يكون قاطعاً على أن سكان فلسطين فى سنة ٨٠٠٠ قبل الميلاد (أى منذ نحو عشرة آلاف سنة) كانوا يحصدون القمح والشعير ، أى أنهم كانوا يعرفون الزراعة .

وقد كانت سوريا والبلاد المجاورة حقولا مختصة بزراعة القمح والشعير وما إليها منذ أقدم الأزمنة .

ترى مما تقدم أننا تتبعنا فى بحثنا أنصار الفريق الأول من العلماء ، الذين يدرسون تاريخ الانسان منذ أول نشأته فصاعدا على رجاء الوصول إلى فجر المدنية فيجدر بنا الآن أن نماشى أيضاً الفريق الثانى من العلماء ، أى أولئك الذين يستقصون آثار المدنية رجوعا إلى الوراء ، وليس ثمة خلاف على المصادر التى يجب أن نرجع اليها فى هذا البحث ، فهى بلاد ما بين النهرين ، وقد استأنف علماء الآثار بعد الحرب الماضية نبش آثارها ، وفحص أطلالها . وهنالك اليوم عدة بعثات إنجليزية أميركية تقوم بالبحث عن الآثار وجمع كل ما يتسنى جمعه من المعلومات .

وفى مقدمتها البعثة التى أوفدها المتحف البريطانى وجامعة بنسلفانيا معاً ، والبعثة التى أوفدتها جامعة اكسفورد ومتحف شيكاغو . والأولى برآسة الأستاذ (ليونارد ولى) وهى تعمل فى منطقة أطلال (أور الكلدانية) والثانية برآسة الأستاذ (لنجدون) وهى تبحث عن خرائب مدينة (كيش) التى كانت اكبر مدن العالم قبل ازدهار مدينة بابل .

وقد حفر الاستاذ (ولى) فى منطقة خرائب (أور)

خندقا طويلا يبلغ عمقه ثلاثة وخمسين قدما ، قبل أن يصل إلى مستوى السهل ، الذى قامت عليه مدينة (أور) القديمة . وفى أثناء حفره الخندق مر بطبقات مختلفة من الأرض ، تحتوى على أدوات وآثار فخارية وحلى وبقايا قبور . واستعان بجميع تلك الآثار ، ليس على معرفة عقائد القوم وعاداتهم فى معيشتهم وحفائرهم فقط ، بل على تاريخ تلك الآثار بوجه التحقيق . مثال ذلك انه لما وصل إلى عمق سبعة وثلاثين قدما ، علم أن طبقة الأرض المتراكمة هنالك ترجع إلى حوالى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، وهذه الطبقة الخارية تكونت من رسوب مياه فيضان عظيم . ويظهر أن ذلك الفيضان بلغ ارتفاع ستة عشر قدما فوق مستوى السهل الأصلى الذى بنى عليه سكان (أور) مدينتهم فى تلك الأزمنة .

وإذا رجعنا إلى حساب (أشر) رئيس أساقفة انجلترا سابقاً (وقد تقدمت الاشارة إليه) وجدناه يشير إلى الطوفان الذى ورد ذكره فى التوراة ، ويقول إن ذلك الطوفان وقع سنة ٢٣٤٨ قبل الميلاد . على أن الآثار التى ظهرت فى مدينة (أور) ترجع ذلك الحادث إلى الوراء ، وتفرض وقوعه حوالى سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد . وفى الواقع أن الاشارات التى وردت فى التوراة ، تتفق كل الاتفاق مع النتائج التى وصل اليها

الأستاذ (ولى) وتثبت أن الأرض كانت قبل ذلك الطوفان عامرة بالمدن . وبعبارة أخرى أن الانسان كان ملما بالحضارة ويسكن المدن قبل ذلك التاريخ ، لأن المدن التى كانت قائمة يومئذ كانت عامرة مزهرة ، ولا يمكن أن تكون قد بلغت تلك المرتبة من الرقى إلا بمرور الأحقاب الطويلة .

أما مدينة كيش أو قيش، فيعتبرها علماء التاريخ أقدم المدن التى قامت فى بلاد ما بين النهرين . وقد بلغت أوج مجدها عند ختام الألف الرابع قبل التاريخ الميلادى . وفى الواقع أن هذه المدينة بلغت من الكبر والاتساع مبلغاً يجعلها فى مصاف المدن الكبرى فى هذا العصر ، فقد كانت مساحتها نحو خمسة وعشرين ميلا مربعاً . واذا فرضنا أن كل فدان من أرضها كان يسكنه مائة شخص فقط (وهو قليل جداً بالنسبة إلى ما نعرفه عن مدن الشرق عامة) كان مجموع عدد سكان (أور) لا يقل عن أربعمائة ألف نفس .

وفى كيش ، عثر الأستاذ لنحدون على الآثار التى عثر عليها الأستاذ (ولى) فى مدينة (أور) ماعدا آثار الطوفان ، فانها أحدث زمناً فى (كيش) منها فى (أور) . وتفصيل ذلك أن الأستاذ لنحدون وجد تحت مستوى الطوفان فى (كيش) الآثار التى وجدها الأستاذ (ولى) فوق ذلك

المستوى فى (أور) وتفسير هـــذا ، أن أساس مدينة كيش وضع فى نحو الزمن الذى وضعت فيــه أسس مدينة (أور) أو قبلها بقليل جداً .

على أن تحت أسس مدينـــة (كيش) آثاراً غير موجودة فى (أور) ونعنى بهـــا رواسب العصر الجيولوجى المعروف (بالنيوليثى) أو العصر الحجرى الحديد ، وهو - باتفاق جميع علماء الانثروبولوجيا - فاتحة أطوار المدنيـــة . فقد ظهرت يومئذ الزراعة واخترع الانسان الحيـــاكة والنسيج وصناعة الأدوات الفخارية . أما صناعة المعادن فلم تكن معروفة بعد .

وعثر الأستاذ لنحدون أيضا تحت أسس مدينـــة كيش على طبقة من الرواسب العريضة تبلغ ثخانتهـــا تسعة أقدام ، ويظهر أن سكان تلك السهول كانوا أثناء رسوب تلك المواد فى طور الحضـــارة (النيوليثية) يقيمون جماعات جماعات ولم يكن عصر بناء المدن قد بدأ بعد .

وعثر السر (جون مارشال) فى وادى نهر السند على آثار مدن كانت زاهرة هنالك عند ختام الألف الرابع قبل التاريخ الميلادى . وعثر أيضا على آثار فى الهضاب المجاورة لذلك النهر تدل على أن قوما كانوا يسكنونها عند انبثاق فجر المدنية .

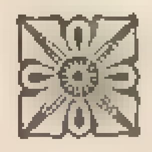
وجميع القرائن تدل على أن تيار المدنية اندفع من هنالك

ومن سهول العيلاميين غربا إلى ما بين النهرين وشبه جزيرة العرب وسوريا وفلسطين ومصر. ثم اندفع شرقا إلى الهند والصين وانتقل بالتدريج بعد ذلك إلى سائر أنحاء المعمورة ومن جملتها أوربا وأمريكا.

هذا وصف موجز لنشوء المدنية البشرية منذ فجر التاريخ إلى الآن، تتبعناه بالاسلوبين اللذين تقدمت الاشارة إليها. ويؤخذ مما تقدم، أن الانسان خرج من طور سكنى الكهوف إلى طور الاجتماع، فى الألف الثامن قبل التاريخ الميلادى أى منذ نحو عشرة آلاف سنة. ومنذ ذلك اليوم بدأ يتحضر ويمارس الزراعة. وتدل جميع القرائن على أن الانسان خرج من طور سكنى الكهوف إلى طور المدن، فى المدة الواقعة بين الألف الثامن والألف الخامس قبل الميلاد.

وفى الواقع أن المدن كانت مزهرة فى ما بين النهرين وفى هضاب إيران فى الألف الخامس قبل الميلاد، ولكى تكون مزهرة لا بد أنها اجتازت مرحلة طويلة من الزمن حتى بلغت تلك المرتبة. وهذه المرحلة لاتزيد على ثلاثة آلاف سنة لأن الانسان كان فى الألف الثامن قبل الميلاد يسكن الكهوف. وفى الألف الخامس كانت له مدن زاهرة.

فالشوط الذى اجتازته المدينـــة بين تاريخ سكنى الكهوف . وتاريخ ازدهار المدن كان شوطا عظيما جداً . ويكاد يكون بلوغ المدينـــة تلك المرتبة الساميـــة . فى تلك المدة القليلة (وهى ثلاثة آلاف ســـنة) من أدهش ماوقع للانسان فى أثناء تطوره .



الفصل الثانى

مصر مبعث حضارة العالم

كان قدماء المصريين يســمون مصر « أرض كيمى » أو « خيمى » ، ومعناها السوداء ، إشــارة إلى الفارق فى اللون بين رمال الصحراء ، وبين الأراضى الزراعية فى مصر .

وسميت مصر فى الكتب العبرية ، « بمصرايم » نسبة إلى ثانى أولاد حام . ولا يخفى مابين هــذه التسمية ، وبين المشهور من أن سكان مصر الأصليين يتصــل نسبهم بحام ابن نوح . ويقال إن العرب اتخذوا كلمة مصر وهى المفرد من مصرايم .

وكان الأشــوريون يسمون مصر (مُصُرْ) ، كما ثبت فى نقوشـــهم .

ونقل المقريزى أن مصر ، كان اسمها قبل الطوفان (جزلة) ولكن ليس ثمة دليل على صحـــة قوله هذا كما أنه ليس من دليل على مقول من قال إن اسمها قديما ، كان « أفسوس » أو « مقدونيه » أو غير ذلك مما يرويه المؤرخون بلا تثبت .

وقد استدل بعض علماء الآثار الحاليين ، على أن مصر كانت تسمى عند أهلها القدماء بأسماء مختلفة . أحدها (بق) ومعناه شجرة الزيتون ، أطلقوه عليها ، لكثرته فيها إذ ذاك . الثانى (تمرا) أى الأرض المتشبعة بالترع والخلجان . الثالث (نى) ، وهو شجر الأشل . وغيرها .

واسم مصر المتداول فى لغات أوربا . وهو فى الفرنسية (Egypte) وفى الانجليزية (Egypt) وما يقارب ذلك فى اللغات الأوروبية الأخرى ، وهى جميعا ترجع إلى أصل يونانى قديم (ايجبتوس) بلفظ الجيم المصرية ، نسبة إلى سكانها (القبط) ، أو نسبة إلى مدينة قفط أو ففط ، التى كانت قديما من مدن مصر العظيمة .

وقد أراد العرابيون أو اليهود بتسميتهم هذه البلاد (مصر) - على مارى - الاشارة إلى ما قاسوه فيها من الشدة والاضطهاد ، كما هو مشهور . لأن لفظ (مصر) عندهم ، مشتق من (صر) فى اللغة العبرانية ، ومعناها (الشدة والضيق) ، ومصر اسم مكان منها ومعناه مكان الشدة والضيق .

وقد أسس (جبرائيل هانوتو) المؤرخ والسياسى الفرنسى المشهور نظريته فى تطور الاجتماع على المباحث التى قام بها

فى تاريخ مصر . إذ لاشك أن فى هذا التاريخ ، جميع الفروض والبيانات ، التى يحتاج اليها العاقل ، لتقدير سير الحوادث فى المستقبل . ولقد أماط لنا علماء الآثار المصرية اللثام عن الأدوار الطويلة التى استغرقها نشوء الحضارة قديما .

وغنى عن البيان ، أن هنالك أسباباً كثيرة ، تحملنا على الاعتقاد أن تاريخ الانسان فى أفريقيا ، يرجع إلى نحو مائة الف سنة قبل التاريخ الميلادى . وفى هذه الفترة الطويلة ، تعاقبت فى أفريقيا أجيال كثيرة ، كانت تظهر مدة ثم تنقرض ومن دواعى الأسف أننا لم نعثر حتى الآن ، على هيكل عظمى واحد ، يرجع إلى تلك الأحقاب الخالية . وما نعلمه عن الانسان فى ذلك العهد ، إنما هو مستفاد من الآثار الحجرية والفخارية ، التى تركها وراءه .

ولم تكن حضارة هذا العهد ، السابق لأزمنة التاريخ المعروفة ، منتشرة فى ذلك الجزء من العالم المعروف اليوم بافريقيا فقط ، بل كانت منتشرة فى البلاد المجاورة لسواحل البحر الأبيض المتوسط أيضاً ، وكانت أفريقيا تمتد يومئذ جنوبا إلى أبعد من حدودها الحالية . ويسمى العلماء الانسان الذى ظهر بها فى تلك الأزمنة ، « الانسان الأفريقى » وهذا أمر حرى بالاعتبار . فالانسان فى ذلك الطور كان إنسانا

بكل معنى الكلمة، وقد بلغ فى رقيه الدرجة التى هو عليها فى هذا العصر. والدليل على ذلك انه كان يفكر ويحسب ويظهر العواطف التى يمتاز بها الانسان اليوم، ولا سيما عاطفة الحب. وكانت جميع آلاته وأدواته مصنوعة على شكل يشف عن قوة عاقلة. وكان لمصنوعاته وآنيته الفخارية شكل هندسى يدل على المامه بالحساب. أضف إلى ذلك أنه كان أليفا ينفر من العزلة ويميل إلى الاجتماع. وفى ذلك دليل على اتصافه بعاطفة الحب، وبعبارة أخرى. أن الانسان الذى كان عائشاً على الأرض قبل المسيح بمائة الف سنة كان له دماغ تام كدماغ الانسان فى هذا العصر، وكان إدراكه على درجة عالية من الارتقاء.

ولننظر الآن فيما وقع بعد ذلك. فقد مرت عدة قرون لانعلم عنها وعن حالة الانسان فيها شيئا على الاطلاق. وحالما انقضت تلك القرون ظهرت المدنية فجأة، واكتشف الانسان نهر النيل واكتشف فى واديه مرعى خصباً وأرضاً تصلح للسكن والاستثمار. ويمكننا أن نسمى هذا الجزء من تاريخ الحضارة (بحضارة الفصول) أى التى أدرك فيها الانسان تعاقب الفصول، ووجوب الاحتياط، فى بعض فصول السنة، للفصول الأخرى، وجمع الزاد والمؤونة وادخارهما لوقت الحاجة.

ترى متى وُفق الانسان الى اكتشاف نهر النيل ؟ لاشك أن ذلك من أهم الحوادث التى وقعت للانسان منذ وجد على الأرض ، وقد كان سبب أكبر انقلاب طرأ عليه . وتدل المباحث التى قام بها العلماء ، على أن هذا الاكتشاف تم فى الوقت الذى ظهرت فيه فكرة (التقويم) عند الانسان فى أول الأمر . وقد ظهرت هذه الفكرة عندما أدرك الانسان لظهور الشمس والقمر مواعيد ثابتة . ولا شك أن الذين ظهرت عندهم فكرة التقويم لأول مرة لحظوا بعد تكرار المراقبة أن ظهور النجم المعروف بالشعرى اليمانية يتفق مع وضع معين للأجرام الفلكية ، ولما كان هذا الوضع يتكرر مرة كل أربعة آلاف سنة ، فمن المعقول أن نفرض أنهم بعد رصد ذلك الوضع ثلاث مرات أو أربعاً ، استخلصوا لها ناموسا ثابتاً . وهذا يدل على أن فكرة التقويم لم ترسخ فى ذهن الانسان ، إلا بعد اثنى عشر أو ستة عشر الف سنة من إدراكه للأفلاك حركات ثابتة ونواميس لايتطرق اليها الخلل .

ومن دواعى الأسف ، أنه ليس لدينا عن هذا الدور من أدوار التاريخ أى أثر حى . ولا شك أن أقدم أثر مادى تركه الانسان هو الأهرام ، التى ترجع إلى خمسة آلاف سنة

قبل المسيح . ونحن نعتقد أن هـــذه الآثار، الخالية من كل شائبة، دليل على أن الذين وضعوا تصميمها كانوا على مقدار من الذكاء لم يقرب أحد من البشر منـــه حتى الآن . فالاهرام هى مظهر من أجمل مظاهر هندســـة البناء ، بل هى دليل ذوق فنى عظيم . ولا شـــك أن ناطحات السحاب الأمريكية تبدو بازائهـــا صغيرة تافهـــة .

ولنا من هـذا أول عبرة نستخرجها من درس تاريخ الأقدمين .

وهى : أن ناموس الارتقاء خطأ محض ، وأن رواية التوراة عن خلق الانسان فى حالة الطهـــارة والمعرفة الكاملة ، أقرب إلى الحقيقة .

وهنالك عبرة أخرى نستفيدها ، عبرة ناموس (التناوب) فالحضارة ترمى دائماً إلى اكتشاف الوحـــدة فى جميع مظاهر الكون ، أى أنهـا ترمى إلى إثبات أن ناموساً واحداً هو أساس الحيـــاة . ولكن أهواء البشر ومصالحهم تعبث بذلك وتحاول افساده . وهـــذا يتضح جلياً من تقهقر الفن المصرى بمرور الزمن حتى صاروا يصنعون تماثيل الفيران والجعران والحيوانات الدنيا ، بعد أن كانوا يبنون الآثار الخالدة ، فكأنهم وضعوا الفن ثم حقروه . ومثلهم فى ذلك مثل من يصنع ثوبا جميـــلا

ثم يمزقه ، ثم يعود فيحاول إصلاحه . وفى الواقع أنهم عندما شرعوا فى تقييد الاله بشكل مادى محدود يشغل حيزا مكانيا ، أنزلوه عن شاهق منزلته وحقروه .

وطفقوا بعد ذلك يحاولون إعادته الى مركزه . فماذا حدث ؟

لم يشـــأ الله أن يتركهم فى الظلام ، فبعث إليهم بالأنبياء ليعيدوهم إلى الحق ، وإلى فكرة الوحـــدة التى وجدت عندهم فى الأصل . وتعاقبت الحوادث بعـــد ذلك بالتناوب : نور ، ثم ظلام ، ثم نور ، ثم ظلام - وجاء بعـد نور الأنبياء ظلمات كليوباطره والاسكندرية والعالم البيزنطى ، وعقب ذلك ظهور النبى محمـــد ، فأنهض العالم إلى نور الوحدة والبساطة .

وهكذا دواليك - يتعاقب النور والظلام .



الفصل الثالث

مصر

وصفها وجنسية سكانها

مصر كما قال هيرودوت « هدية من النيل ». والنيل بين جنادل أسوان والبحر الأبيض المتوسط ينقسم إلى جزءين يمتاز أحدهما عن الآخر تماما : يجرى الجزء الأول منه فى صدع فى الهضبة الأفريقية ، والثانى فى سهل من الطين من صنعه فانقسمت مصر بذلك قسمين مختلفين : مصر العليا ومصر السفلى ؛ الصعيد والدلتا .

أما مصر السفلى فدلتا تكونت فى البحر الملح فى آلاف من السنين . وقبل أن تتولاها يد الانسان بالصرف والزرع كانت حمأة مستوحلة يكثر فى مستنقعاتها السمك والطيور المائية .

وغربى الدلتا تمتد الصحراء الافريقية ، وبها بالقرب من مصر سلسلة من الواحات . ويسمى هذا الغرب (ليبيا) ومنها غزا مصر ، فى مختلف العصور ، أقوام شتى ، أخرجتهم من مواطنهم السنون المجدبة .

وشرق الدلتا صحراء جرداء . ولكنها لم تمنع عن مصر اغارات المغيرين ، ففيها مسالك ودروب توصل لآسيا .

ويحف بالصعيد من الجانبين حافتا الهضبة ، ويختلف عرضه بينهما . وجنوبي طيبة يضيق إلى ميلين . وعند اسوان وحلفا تعترض النهر أحجار شديدة الصلابة هي الجنادل .

وليس الصعيد بمعزل عن الأرض ، شرقيه وغربيه ، فكلتا الحافتين تشقها في عرضها وديان عدة ، ومن أشهرها وادى الحمامات ويمتد إلى البحر الأحمر من النيل عند قفط ، ويلاحظ اقتراب النيل هنالك من البحر الأحمر . ويمتد في المنطقة نفسها مسلك آخر نحو الواحة الخارجية ، وبذلك كانت هذه المنطقة ذات شأن خاص في تاريخ مصر القديمة .

هكذا مصر كل مافيها متوقف على فيضان النيل ، يترقب أهلها ارتفاعه كل عام منذ آلاف السنين ، ويتساءلون فيما بينهم عن عوامل ذلك الارتفاع ، ولكن الجواب عن ذلك ليس في استطاعتهم ، فالنيل يجرى من بلاد بعيدة لم يعرفوا عنها شيئاً ، وكل مايمكنهم عمله هو العناية بحبس الماء ، والقسط في توزيعه ، ومنع الاسراف فيه .

ولقد وصف كتاب اليونان ، المصريين فنسبوهم إلى الجنس الأسود ، ووصفوهم بأن شفاههم غليظة ، وأرجلهم وسيقانهم

رفيعـــة ، وشعرهم أجعد . على أن ماتركه قدماء المصريين من المـــوميات والتمـــاثيـــل ، تدل دلالة واضحـــة على أن المصريين لم يكونوا من الجنس الأسود . فقد عثر (ماريت باشـــا) فى الجزء الأخير من القرن التاســـع عشر، على بقايا جنس من الاجناس، فى نهاية حدود مصر الشماليـــة الشرقية ، ويختلف هـــذا الجنس فى خصائصه عن المصريين القديمين والحديثين . ويظن أن هذا الجنس هو الجنس الأصلى الذى كان يسكن مصر فى العصـور الأولى . جنس افريق أصلى ولكنه لم يكن ينتمى الى الجنس الأسود . ثم أن موقع مصر بين الأجناس الاسيوية والافريقية جعل امتزاج مصر بهذين الجنسين أمرا لامناص منه .

ولقد خلف قدماء المصريين فى عصورهم المختلفة موميـات تدل على تعدد الامتزاج الدموى فى عصور متباينة . وذكـر سواد المؤرخين أن المصريين سلالة عنصرين أفريقيين هامين :

سكان الصعيد وهم جنس أقنى الأنف ناعم . الشعر . يشبه القبائل التي تسكن الآن بلاد الصومال شبها تاما .

وسكان الدلتا وهم ليبيون يشبهون الأسيويين السـاكنين شرقى الدلتا ، ولغتهم ساميـــة . والظاهر أن هؤلاء الليبيين تغلبوا على سكان الدلتـا الأصليين ، وهم من الجنس الافريقى الأبيض ،

أو جنس البحر الأبيض المتوســط ، ودفعوهم نحو الصعيد .
وقد أثروا فى لغتهم ودينهم ، وصبغوهم بصبغة أسيوية ، ونشروا
صناعة المعادن . ثم حدث بعــد ذلك تغلب أهل الصعيد
على الدلتا ، وتأسيسهم مملكة واحدة نشطت فيها الحضارة .

وعلى ذلك لم تنشط الحضارة تبعاً لاغارة أجنبية ، ولا ينافى
ذلك أبداً أن سكان الصعيد أصلهم من الصومال أو من شــبه
جزيرة العرب . وقد كان المصريون القدماء يعتقدون ذلك .
ولهم فى ذلك قصة كبيرة منقوشــة على جدران معبد ادفو
الذى بنى فى عصر البطالسة . وملخص تلك القصة ، أن المعبود
« حوريس » الذى كان ابوه يحكم فى بلاد النوبة ، ركب سفينة
وتبعه كثير من الجند ، ونزل منحدراً فى النيل ، وكان وقتئذ يشغله
المعبود « ست » وأتباعه ، وتقاتل المعبودان وأتباعهما إلى أن تم
النصر لحوريس . ويرى المؤرخون أن تلك القصــة مجموعة
وقائع تاريخيــة حقيقية ، تناقلها المصريون إلى زمن البطالسة
حين دونوها . وأنهـا تشير إلى شــيئين متميزين لم يحدثا
فى وقت واحد وهما : قدوم أهل الصعيد من الجنوب الشرقى ،
وانشاؤهم حكماً قوياً فى جنوب الصعيد ، وتغلبهم بعــد ذلك
على سكان الدلتا ، بعد أن تعلموا من أهلها صناعة المعادن
الأسيوية الأصل .

الفصل الرابع

الديانة عند قدماء المصريين

كانت الديانة — على اختلاف اشكالها واختلاف درجات تقدمها أو تأخرها — المحور الذى تدور عليه حياة الأفراد فى البيئات القديمة . ولقد تجلى للمصرى القديم آلهة فيما يحيط به من العوامل الطبيعية . فالسماء الزرقاء ، والشمس التى تشرق كل يوم بانتظام وتغرب بانتظام ، والقمر المضىء ، والاشجار الباسقة ، والطيور المغردة ، والحيوانات الأليفة . كل هذه كانت منبعاً استق منه المصرى القديم كثيراً من عقائده الدينية . ولكن فى الوقت نفسه نلاحظ أن نوع العوامل الطبيعية فى مصر كان له أثر على طبيعة العقائد الدينية بين المصريين .

الناظر الى وادى النيل ، يرى أرضاً خضراء ، تكسوها المزارع ، تنقلب فجأة إلى صحراء قاحلة . يرى أرضاً منبسطة متشابهة ليس فيها تغيير ، يحيط بها سكون ممل . يرى برداً قارصاً فى الشتاء وحراً لافحاً فى الصيف . كل ذلك أدخل على طبيعة المصرى شيئاً من الملل فى الحياة ، وشيئاً من الحزن

فى الطبيعة . يتجلى ذلك فى الأغانى المصرية سواء منهـــا القديم أو الحديث . نغمات هذه الأغانى نغمات حزن مملة لأن الطبيعة فى مصر مملة . نغمات كلهـا تأوهات وشكاوى وكل ذلك راجع للعوامل الطبيعية .

ولمـا كان المصرى القديم عرضة لملاقاة صدمات طبيعية تضيع عليه مجهوده ، فقد أصبح أمله فى الحياة غير ثابت ، وأخذ ينظر إلى هذه الحيـاة كأنها مكان للبؤس والشقاء ، مما حمـــله على الاعتقاد بالترحيب (بآلهة الفزع) خشـــية أن تبطش به وتنتقم منــــه . ولقد كان لكل قرية مصرية قديمة آلهة سوء ينسب اليهـا كل مايحيـــط بأهلها من المصائب فترى سكانهـا يجتهدون دائما فى ترضيتها بالتذلل والصلوات فى كل حين .

ولقـــد اعتقد المصرى القديم فى الحيـاة بعد الموت ، ولم يفسر الموت إلا بأنه كنوم النائم ، لابد أن يعقبه يقظة ، ويتلوه تجديد فى الحيـاة ، وهـــذا هو السبب فى الاعتقـاد السـائد (بالبعث بعد الحياة) .

رأى المصرى القديم أن الشمس تشرق كل يوم بجلالهـا فى الصباح ، فى جو خال من السحب . وقدر مالهـــذه الشمس من الفضل على حياته وعلى زرعه فأحلها محل الألوهية ، وقدسها فى كثير من أناشيده الدينية وخاطب إله الشمس (بأنه الإله

الذى إذا ظهر فوق الافق قام الناس وجدُّوا وإذا اختفى تحت الافق ناموا وسكنوا).

ولقد كان لإله الشمس عند قدماء المصريين أكبر منزلة . واطلقت عليه أسماء مختلفة منها (فتاح) فى ممفيس ، و (رع) فى عين شمس ، و (آمون) أو (آمون رع) فى طيبة ، و (آتون) فى تل العمارنه . والسبب فى اختلاف تسمية إله الشمس هو اختلاف الأمكنة التى كان يعبد فيها ، واختلاف نفوذه وأثره باختلاف الظروف السياسية فى مصر وقتئذ .

ظل إله الشمس ملقباً فى أثناء الأسر الست القديمة (بأبى الآلهة كلها) فنُسِبَ إليه خلق الانسان . واعتقد المصريون القدامى أن الآلهة جاءت إلى الوجود من عينه ، والبشر خلقوا من فمه ، وكانوا يمثلونه على شكل مومياء محنطة تقبض فى يدها على قضيب الحياة والقوة .

وفى الأسرة الرابعة كان هذا الإله قد وصل إلى درجة من الأهمية والنفوذ ، أصبح معها ملوك الأسرة الرابعة ينسبون أنفسهم إلى هذا الإله ، كما يتجلى ذلك فى أسمائهم مثل (خفرع) و (منقرع) . وذلك بالطبع اشارة إلى الصبغة الالهية التى كان يتمتع بها ملوك مصر ، والتي كانت سبباً فى ازدياد ونفوذ هؤلاء الملوك فى الأسرة الرابعة كما يتجلى ذلك فى أهرامات الجيزة

التى بنيت لتنافس الدهر البقاء .

وفى الأسرة الخامســـة ازداد نفوذ إله الشمس ازدياداً هائلا فى السلطة والجاه أكثر منـــه فى الأسرة الرابعة ، يدل على ذلك أن ملوك الأسرة الخامسة أصبحوا يعتبرون أنفسهم ابناء الإله (رع) ومن جسده .

وسادت الفوضى بعد الأسرة السادســـة ، وخرج أمراء الأقاليم على سلطة الملك ، واســـتقلوا بالشأن فى أقاليمهم ، ما أثر على مركز إله الشمس .

وفى الأسرة السابعة عشرة وما وليها من الأسر التى قامت لتأسيس الامبراطورية المصرية ، سمى إله الشمس (بآمون) وهو الاسم الذى كان يطلق عليـــه فى طيبه . وكان المصريون فى ذلك الوقت يعتقدون بأن جميـــع الفتوحات التى يقومون بها هى فتوحات باسم الإله آمون ، وان الملك ماهو إلا وسيلة بعث بها الآلهة لتوسيع نطاق مملكة الآلهة ، وعلى ذلك فالملك أصبح يعتبر نفسه خليفـــة للآلهة لا فى مصر فقـــط ، بل وفى الأملاك التى زيدت عليها الآن .

ولما تولى الملك (أمنحتب الرابع) فى مصر ، وكان شديد الولع بالمسائل الفلسفية والدينية ، أراد أن يرغم الناس على اتباع دين واحد يتفق مع نظرياته . والإله الذى اعتقد فيه

امنحتب الرابع (اخناتون) لم يكن الشمس نفسها ، بل ماوراء الشمس من قوة هائلة مختفية عن الأنظار ، قوة تبعث أشعة الشمس فى كل مكان فتفيض معها الحياة فى كل تلك الأمكنة .

وقد دفع (اخناتون) إلى القيام بتلك الثورة الدينية ، مارآه حوله من تعدد الآلهة وتناقض بعض النظريات الدينيــة المصرية ، ورغبته فى التخلص من نفوذ كهنة الإلهة آمون وبلغ من شدة تعصبه ضد الإله آمون أنه غير اسمه من أمنحتب إلى اخناتون ، كما أنه مسح اسم أبيــه من المعابد المصرية حتى لايرى كلمة آمون على جدرانه ، كما أنه جعــل يكافىء كل من اتبع دينه من ضبـاط الجيش وموظفى الحكومة بشتى الهدايا ويخلع عليهم أرفع الرتب .

كان إله الكون فى نظر إخناتون إلها قويا ، إله الطبيعـة ، بمعنى أن كل ماهو طبيعى فهـو من وضع الإله ، وقدرة الإله فالزهرة اليانعة ، والسماء الزرقاء ، والأرض والطيور والهوام ، كل هذه مظاهر من قدرة الإله . كذلك كان يقول اخناتون بأن كل ماهو طبيعى فهو من صنع الإله ، والله حق ، واذن فكل مايصنعه الإله فهو حق .

اعتقد اخناتون فى مبدأ الحق الإلهى المقدس للملوك ، فزعم أن إلهه خصه بمعرفة أسراره دون سواه ، بل وانه خلق

الأشياء كلها لمصلحة ابنه اخناتون الإله .

مما تقدم يتضح لنا جليا أن ملوك مصر القديمة كانوا يعتقدون بأن الله بعثهم رسلا من عنده ليحكموا الدنيا التي خلقها ، وليثبتوا قوته في الأرض .

ولنذكر شيئاً مما كان يناجي به اخناتون الإله آتون ، « أنت آتون . أنت في قلبي ، وما يعرفك ويعرف كنهك الحقيق غير ابنك اخناتون . لقد خصصته بمعرفة شؤونك . كل ما في الدنيا في يدك ، فان أشرقت عاشوا ، وان عزبت ماتوا . بروحك تعيش الانسانية ، وفي جمالك تتعشق . أنت الذي خلقت الدنيا وخلقت ما فيها كي يحكمها ابنك اخناتون . »

غير أن الثورة الدينيـة التي قام بها اخناتون فشلت في نهاية الأمر لسياسة العنف والشـدة التي اتبعها الملك ، من جهة ، ولأن هذه الثورة كانت مرتكزة على شخص الملك ، من جهة أخرى .

إنه من السهل على أي ملك مطلق التصرف أن يتخذ لنفسه ولحكومته دينا رسمياً ، ومن السهل أيضـاً أن يجبر الناس على التظاهر بخضوعهم لهـذا الإله ، ولكنه من الصعب حمل الناس على الايمان بهذا الإله في قلوبهم والاخلاص له . ولذلك فبمجرد موت اخناتون انقلب الناس من هـذا الإله الجديد ،

وارتدوا إلى ما كانوا عليه من العبادات القديمة . وكان نصيب اخناتون من هذه الحركة الاصلاحية ، الاشارة له باسم مجرم اخيتاتون (تل العمارنه) وفى عصر خليفته (توت عنخ آتون) ، « صورة آتون الحية » ، نرى كهنة طيبه يرغمون الملك على تركه اخيتاتون والعودة لمدينة طيبه مركز عبادة الإله آمون ، واضطروه أيضاً إلى تغيير اسمه إلى توت عنخ آمون .

وغير إله الشمس من آلهــة المصريين القدامى ، إله الموتى (أوزيريس) الملقب بملك الدنيا السفلى ورئيس المحكمة العليا للأموات ، وكان محبوبا من رعيته هو وأخته وزوجه (إيزيس) غير أن نفس أخيــه (ست) كانت مملوءة بالخبث والخداع فأخذ يعمل على قتل أوزيريس والتنكيل به ، وانتهز فرصــة وليمة من الولائم ودبر لأخيــه مكيدة وقتله بعدها ووضعه فى صندوق ورماه فى النيل .

فحزنت ايزيس على ذلك حزنا شــديداً وسكبت الدمع سخينا وتضرعت إلى الإله الأكبر بأن يرد اليها زوجها وأسهبت فى رثائه لشدة تأثرها عليه فقالت :

« واأســفاه ياملك السرور . يامن يشرح قلوب حلقة الآلهة . يامن ينــير بجماله المتلألىء . أنا زوجك التى تحميك فى كنفها . أنا الأخت التى تحمى أخاها . عد إلىّ . دعنى أمتع

عنى بك . يامالك قلبي وحبي . وا أسفاه ياصاحب الصفات العليا . الممالك والأقطار تنوح عليك وتبكى ، والسماء والأرض تصبان دمعهما ، لأنك أعظم الآلهة . ارجع إلى معبدك ولا تخش بأساً ولا يدخل قلبك الخوف فان ابنك هورس سينتقم لك ويأخذ بثأرك ويفتك بالشياطين من أعدائك .

ارجع إلى زوجك ودعها تضمك بين ذراعيها . ارجع إلى زوجك التي تبكى وتنوح عليك وليس لها من غاية تصل اليها سوى حبك . انها حزينة القلب كسيرة الفؤاد لأنك أخذت منها على غرة وهى تنتظر عودتك .

من عمل سوءاً فسيجزيه الله شر الجزاء . ان زوجك الضعيفة ستأخذ بثأرك بسبب ما جرى لك ، وتشفى لحمك الذى يكسو عظامك وتعيد أنفك إلى وجهك كما كان وتلم شعث عظامك المبعثرة ... سلام عليك يامولاى اتبعني بنورك الساطع ودعني أرك كل يوم يامن رائحة لحمه كرائحة خشب بنت (Punt) »

هذا الرثاء يرينا إلى أى حد كانت المرأة المصرية فى العصور القديمة تحب زوجها حبا خالصا خاليا من الرياء ، حبا ممزوجا بحنو خالص من كل شائبة ، وحنان بعيد عن كل خداع .

تضرعت ازيس إلى الإله الأكبر بأن يرد إليها زوجها

وفعلا - بعد مدة طويلة - تقبل الإله الأكبر دعوات ايزيس ورد اليها زوجها فدبت فيه الحياة مرة ثانيـــة . ولما كان من المستحيل على اوزيريس بعـــد موته أن يستأنف شكله وحياته الدنيوية . فقد استحال إلى سـيد آلهة الدنيا السفلى وأصبح إله الموتى ورئيسا للمحكمة التى تحاسب الميت بعد موته .

وقد حدث أنه فى أثناء قيـــام ايزيس بتحضير المعدات لدفن اوزيريس ، كان يساعدها فى ذلك أحد آلهة الدنيا السفلى ، وهو ابن آوى الذى أصبح من ذلك الوقت إله التحنيط وذلك مكافأة له على عمله .

ولم يكتف ست بما اقترفته يداه فى قتـــل اوزيريس ، بل إنه نسب أموراً شائنة تلحق العار بشرف ايزيس عند ماوضعت ابنها هورس بعـــد وفاة زوجها اوزيريس . فلما شب هورس قامت بينه وبين (ست) مشاجرات عنيفة كان هورس يسعى فيهـا للانتقام لأبيه وأمه وفعـــلا تشاجر الاثنـان وجرحا ولكن جراحات ست كانت أبلغ بكثير من جراحات هورس ، ولما ظهـــر الاثنان أمام المحكمة العليـا للتقاضى حكمت المحكمة بصحة نسب هورس وبادانة ست الذى عرف منذ ذلك الوقت بإله السوء ، ولقد كان لهذه الخرافة الدينية أثر عظيم فى عقائد قدماء المصريين . فاعتقدوا أن كل من أحسن فى دنياه وخصوصا

كل من ذاقت نفسه الآلام مثل اوزيريس لابد له من أن يكافأ بنعيم فى الحياة الأخرى ، وبعكس ذلك يكون مصير من أساء فى دنياه كما هى الحال مع ست .

والمعروف عن اوزيريس أنه كان يرأس محكمة منظمـــة تتكون هيئتها من اثنين وأربعين قاضـــيا وكانت جلستها تعقد فى قاعة العدل واختصاصها محاسبة الميت على أعماله بعد تقديمه إلى هده القاعة ، لينفى عن نفسه اثنين وأربعين تهمـــة ، فيقف الميت على باب ردهة الحق ويترافع عن نفسه قائلا ، الخضوع لك أيها الإله الأعظم ، جئت إليك يارب خاشعاً لاعاين مجدك . انى أعرفك وأعرف إسمك وأعرف أسمـــاء الاثنين والأربعين قاضياً الجالسين معك فى قاعة العـــدل ... لقد أتيت إليك متوســـلا بالحق . لقد تحليت يا إلهى عن كل رذيلة ومعصية طمعاً فى حبك ورضائك ... انى لم اسئ إلى أحـــد ولم أظلم أسرتى ولم أسلك طريق الظالمين ، ولم أعمل مايغضب الآلهة ... انى لم أسئ إلى خادم ولم أهمـــل الجائع والمسكين ولم أقتل ولم أحرض أحدا على القتـــل ... انى لم أحنث فى يمين ولم أسع فى ضرر عبد عند ســـيده ولم أكذب ولم أضمر لأحد سوءا ولم انتهـــك حرمة جثث الأموات ولم أرتكب الفحشاء ولم أدنس معبداً مقدسا ولم أبخس المكيال ولم أتعد على أرض

جارى ولا على ماخصص للآلهة من وقف . ولم أقتنص طيور
الآلهـــة ولم اطارد ما بأرض الآلهـــة الموقوفة من حيوان .
ولم أخالف نظـام الرى ظلـــا وعدوانا ولم أتلف الأراضى
الزراعيـة ولم أحـــل عاملا على العمل فوق طاقته ولم أكن
قوالا ولا نمـاما ولم أتعد على كاهن قريتى المقدس ....
تلك التهم التى ينفيهـا الميت عن نفسه ثم يتوســـل بعد ذلك
إلى الآلهة بالعبارة الآتية ، « أنا طاهر . أنا طاهر . أنا طاهر .
ســـلام عليكم أيها القضاة بقاعة الحق لاتنزلوا علىّ غضبكم
ولا تقدمونى إلى الحكم الأعظم مذنبا ولا تكونوا ســـبباً
فى شقائى . قولوا انى برىء فانى لم أعمـــل إلا ماهو حق بمصر
ولم أسب الإله ولم أنسب إلى الملك سوءا : الخضوع لكم أيها
الآلهة ، خلصونى يوم الحساب العظيم . انى لم أعمـــل سوءا
فلا تجعلوا السوء إلىّ ســـبيلا . لقد أطعمت الجياع وسقيت
العطشى وكسوت العراة اذن فكونوا حماتى وخلصونى
ولا تنسبوا إلى التهم فى حضرة الإله الأعظم . انى طاهر اللسان
طاهر اليدين فقولوا لى مرحباً مرحباً ادخل بسلام . »

بعد ذلك يعرض قلب الميت على الميزان ويوزن أمامه
ريشة ، فاذا اتضح حسن عمـله وطهارة قلبه ، نطق (Thoth)
إله الحكمة ومخترع الكتابة الهيروغليفية وكاتب هـــذه المحكمة

بالنتيجة التى دونها ، فيقول « اسمعوا أيها القضـــاة . لقد وزن قلبه فلم يوجد فيه اثم . انه لم يعمل سوءاً فى دنياه ولم يبدد شيئاً مما خصص للمعابد ولم يضر أحـــدا ولم يؤذ أحدا . ان مانطق به هو الحق الذى لايمكننا أن نفاوض فيـــه . فليدخل الآن إلى حضرة الإله اوزيريس ولتقـــدم له اللحوم والشراب وليكن مسكنه من الآن نعيم الجنة » وعلى ذلك يقدم الملك الميت إلى حضرة الاله اوزيريس الذى ينطق بالحكم الآتى :
« فليخرج الميت ظافراً من قاعة العـــدل وليذهب حيثما شاء ولتفتح له أبواب الجنة وليرد له قلبه ولتوهب له حياة جديدة »

بعد ذلك يقدم إليـــه طعام مقدس تتحول به روحه إلى هيئة إلهيـــة . وأما إذا تبين أنه كان من المذنبين فينطق اوزيريس بالحكم قائلا : « ابعـــد عنى أيها الشرير واذهب إلى حيث تلاقى أشـــد العذاب . أيها القضاة اقتلوه بسيوفكم وتغذوا الآن من لحمه ودمه . لقـــد جعلتك غنيمة للوحوش والأفاعى » .

ونظرة عميقة إلى خرافة بكاء ايزيس وابنهالاتها التى رققت قلب الإله ، فأعاد أوزيريس إلى نوع من الحيـــاة هو فى الحقيقة صورة من صور النعيم - نقول نظرة إلى هـــذا ، تجعلنا نستبين وجه الشبه بينه وبين ما هو قائم بين ظهرانينا الآن من العادات

والتقاليد التى تقضى بجمـــع الأقارب وغير الأقارب للبكاء على الميت ، واقامة المأتم ثلاث ليال كاملة ، وعمل « العتاقات » والقراءات فى كل مناســبة ، واعتقاد العوام أن ذلك مما يكفل للروح الهدوء ، وللميت النعيم المقيم .

ونظرة أخرى إلى ما يعتقد المصريون حصوله بعــد الموت من الحساب ثم الثواب أو العقاب ، تبين لنا مبلغ ما فى شعائر هذه الديانة من القرب إلى أسمى الديانات القائمة اليوم .

ولولا تصـور القوة الإلهيــة متجسمة فى أشخاص تارة وفى حيوانات تارة ، وفى أحجار أحيــانا ، لكانت الديانة المصرية القديمة أقرب ما تكون إلى الدين الاســلامى السمح الحنيف ، ولكانت صلتنا الدينيــة بالعرب الأمجاد ، لا تختلف فى صميمها عن صلتنا الوراثية بالفراعنة البهاليل الكرام .

الفصل الخامس

طبيعة العقيـــدة المصرية

إذا طالع الانسان أناشيد المصريين وصلواتهم ومناجاتهم للآلهـــة يجد نفسه أميـــل إلى الاعتقاد بأن المصريين كانوا يعتقدون بوحدانية الله خالق الأرواح فى الأشـــباح ، بعضى الزمان وهو باق دائما . ومن هذه العبارات نشيدهم للإله رع ، نشيد كانوا يرتلونه عند طلوع الشمس ومنه نقتبس « الخضوع لك يامن اسمه رع . يامن تهب جمالك على الآلهـــة . أنت ملك السـمـوات . أنت ملك الأرض . أنت خالق كل شيء يعيش على ما ظهر من ســـطح الأرض وما اختفى فى باطنها . أنت الإله الواحد الذى جاء إلى الوجود . أنت الذى خلقت الأرض وصورت الانسان وبنيت قبة السماء المائية وكونت حابى Hapi إله النيل بقوتك . أنت الذى كونت مجارى المياه على أنواعها وخلقت ما بها من حياة . أنت الذى رفعت الجبـــال وخلقت الانسان والحيوان . أنت » الذى خلق نفسه بنفسه »

كذلك نراهم يصفون إله النيل (Hapi) ببعض الأوصاف

التي وصفوا بها (رع). أما فيما يختص بعبادة الحيوانات كعجل أبيس مثلا فلم تأتهم هذه العقيدة إلا بعد اضمحلال مصر واضمحلال المدنية المصرية والفلسفة المصرية ، ولذلك فانها جاءت فى العصور المتأخرة . وخير مكان توجد فيه الأدلة على مقدار اجلال المصريين لعجل أبيس هو معبد السرابيوم بسقارة.

ولقد كان المصريون يعتقدون أن جسم الانسان يتركب من الجسد وهو الهيكل اللحمى للانسان والنفس وهى عبارة عن الجسم الثانى له فاعتقدوا ان لكل شخص رفيقا ثانيا يتشكل بشكل الجسد ، طفلا كان أو رجلا أو امرأة ، ويخلق مع صاحبه ويذهب معه أينما ذهب ويدفن معه فى القبر ، وخلاصة القول أن نفس الانسان كانت مقيدة بالزمان والمكان . أما الروح فكانت شيئا معنويا فى نظرهم تتقمص فى أى شكل يعجبها : فى شكل زهرة أو ثعبان أو تمساح أو طائر كيفما يتراءى لها ، وتنتقل من مكان إلى مكان كيفما شاءت ومتى شاءت . وبعبارة أخرى كانت هذه الروح تتمتع بقوة كاملة وحرية مطلقة وحتى بعد أن يموت الميت ويدفن فى القبر كانت روحه لاتسجن معه ، بل كانت تظل مطلقة السراح تنتقل من مكان إلى مكان وتزور صاحبها من وقت لآخر فى قبره . وهذا هو السبب

فى أن المصريين كانوا يضعون اما على باب حجـــرة المقبرة أو فى داخل الحجرة ، تماثيل للميت ، كما أنهم كانوا يكثرون من نقش صورة الميت على جدران الحجرة ، قاصدين من ذلك أن تتبين الروح صاحبها وتستطيع أن تزوره بين الفينة والفينة .

كذلك نرى المصريون يضعون فى هذه الحجرة شيئاً من الطعـــام حتى تستطيع الروح أن تتغذى منـــه عند زيارتها لصاحبهـا . كما أنهـــم كانوا ينقشون صوراً على



مدخل مقـــبرة مصرية قديمة

الحائط تمثل طيوراً مذبوحة وانعاما مجهـــزة للاكل وخبزاً وغيره . وكانوا يعتقدون أنه بتـــلاوة التعاويذ والصلوات على هذه النقوش الممثلة للطعام تستحيل القوة المختبئة فى هـذه النقوش إلى طعام صالح للغذاء يمكن للروح أن تتغذى منه .

ومما تقدم يتضح لنا جلياً أن الروح كانت فى نظر قدماء المصريين خالدة لاتموت مع الميت ، بل تبقى حيـــة كى تحفظ شخصية

الفصل السادس

النظام الحكومى والاجتماعى فى الدولة القديمة

كان المصريون القدامى فى بادئ أمرهم يعيشون جماعات قليلة، تعمل كل جماعة لنفسها، ورأوا من المصلحة أن يشترك كل عدد من هذه الجماعات فى عمل واحد يعود عليها بالخير كحفر قناة أو درء خطر، فنشأ من ذلك أول نظام اجتماعى شهده العالم، وتكون من مدن الجماعات المتقاربة إقليم ذو حكومة واحدة.

أما أزمة الأمور فى الأقاليم فكانت فى أيدى رجال الكهنة وكبار الملاك. وكان لكل أقليم آلهة خاصة به عدا ما كان يعبده المصريون جميعا من قوى الطبيعة كالشمس والقمر والنيل. واتخذ كل أقليم علما خاصا، عليه رمز ذلك الأقليم. وعرف المصريون كيف يركبون النيل، وكانت سفنهم الشراعية تحمل رمز الأقليم أيضاً.

وكثيرا ما كان سكان الأقاليم المتجاورة يتحاربون فيتغلب أقليم على آخر فيضمه إليه. وأسفرت نتيجة تلك الحروب عن

تكوين مملكتين عظيمتين ، إحداهما فى الشمال وكان رمزها حزمة من البردى ، والأخرى فى الجنوب وكان رمزها زهرة الزنبق .

وحوالى سنة ٣٤٠٠ قبل ميلاد المسيح خطرت فكرة هائلة فى رأس الجالس على العرش . زحف ذلك الملك من عاصمته طينة (على مقربة من جرجا الحالية) إلى الشمال ، وما هى إلا مدة قصيرة ، حتى أخضع سكان الشمال ، فلبس التاجين ، ووحد الوجهين ، وأصبح صوته مسموعا من جنادل اسوان إلى مصب النيل . ذلك هو « مينا » ، رأس أسرات الفراعنة ، ومؤسس أول مملكة أشرقت عليها شمس التاريخ ، فى وقت كان كل سكان الأرض فيه يعيشون همجا لا رابطة بينهم .

ولا تسل عما جره ذلك الاتحاد على مصر من خير فقد تقدمت العلوم والفنون فى المملكة الأولى فى العالم وترقت العمارة ، وكثر تشييد المقابر والهياكل ، وانتظمت حركة التجارة والصناعة

ولم تكن مثل تلك الحكومة ، بما فيها من موظفين وجباة ، تستطيع أن تستغنى عن طريقة تضبط بها ميزانية الدولة ومقادير الضرائب . فاضطرتهم الحاجة إلى اختراع الكتابة ،

فكان المصريون أول قوم ورثوا العالم تلك النعمة الكبرى ، التى حملها الفينيقيون بعد ذلك بآلاف السنين ، ونقلوها إلى كل الشعوب .

ولمس المصريون بأيديهم منافع الوحدة الوطنية وكان هم خلفاء « مينا » من ملوك الأسرتين الأولى والثانية ، هو تثبيت دعائمها والتمكين لها .

غير أنه يصعب علينا أن نصدق أن ذلك العمل كله قام به ملك واحد : والمعقول أن يكون ذلك ثمرة جهاد ملوك كثيرين . وعندنا أنه لم يكن « مينا » هو الذى قام وحده بتوحيد مصر ووضع أساس عظمتها .

قال المؤرخ هيرودوت : أنه لما تم أمر اتحاد المملكة لمينا أراد هذا الملك الطيبى (أى من طيبة إحدى بلاد الصعيد) أن يتخذ له عاصمة تكون مركزاً لأحكامه فاستحسن الموضع الذى به الآن (ميت رهينة) وحاطه بجسر . وكان النيل يجرى بجانب هضبة ليبيا فحوّله الى مجرى مهده بين الجبلين ، ثم حاط الأرض التى تخلصت من ذلك بالجسور . وأنشأ فيها مدينة منف ، ثم احتفر حولها فى الجهة البحرية والغربية ، بحيرة يأتيها الماء من النيل الذى يحد المدينة من الجهة الشرقية . فصارت محصنة يحيطها الماء من ثلاث جهات .

والظاهر لأحدث المؤرخـــين أن نسبة كل ذلك لمينا أمر غير مقبول ، بل أن بعضهم يشك الآن فى وجود (مينا) نفسه ويعتقد أن ملكا آخر من ملوك مصر المتحـــدة الأولى ، أولى منه بالشهرة : ذلك الملك هو (نارمر) الذي أتم تغلب الصعيـد على الوجه البحرى واتخذ عاصمته موضع (كمر طرحان) التى تبعد عن القاهرة بخمسة وعشرين ميلا .

ومهما كان من أمر ذلك فأصلهم كله من طينه بالقرب من جرجا ، وكانوا يدفـــون فى الموضع المعروف الآن بالعرابة المدفونة .

وبالرغم من توحيـــد القطرين ، فان النظام الحكومى والادارى ، كان لايزال قائما على أساس الوحدة الادارية ، أى أن مصر كانت مقسمة إلى عدة مقاطعات ، كان يوجد منها نحو العشرين فى مصر العليا وربما كان هناك مثل هذا العدد فى مصر السفلى . وكانت كل مقاطعة من هذه المقاطعات ، تكوّن وحدة إدارية فى حد ذاتها ، وكان هناك على رأس كل مقاطعة حاكم تحت تصرف الملك ، يعينه أو يعزله متى شـــاء . وكانت علاقة الحاكم بالملك أشبه بعلاقة المدير الحـــالى فى مصر مع وزارة الداخلية ، ولكن بالرغم من ذلك فان الحاكم كان له فى داخل حدود مقاطعته ، سلطة واسعـــة النطاق ، فإدارة المقاطعة

ومستودعات الذخيرة ، كانت فعلا تحت إشراف حاكم المقاطعة الذي كان مسئولا أمام الملك . نظام كهذا ، كان من غير شك محتملا ، مادامت الملكية قوية ، غير أنه بمجرد ضعف الملكية كانت السلطة التي يتمتع بهـا سكان الأقاليم أكبر خطر على الوحدة المصرية .

وكان مركز الملك عند توحيد المملكية قد وصل إلى درجة كبيرة من الجاه والنفوذ . فكان الناس مثلا يقبلون الأرض أمامه في الحفلات الرسمية . أما أصحاب الحظوة عنده ، فكانوا يمتازون عن غيرهم بتقبيل قدمه ، وكانت حكومته في أول الأمر تعرف (بالبيت العظيم) أو (الديوان العالي) (Per-o) وأصبحت هذه التسمية تطلق بعد ذلك على شخص الملك نفسه ثم حرفت هذه الكلمة إلى (Phara-oh) وعند العرب فرعون .

كان لملوك مصر صبغة مقدسة ، وكانوا يستحيلون بعد موتهم إلى آلهة أو ملوك ، يحكمون بسلطة استبدادية محضة ، كما يتجلى ذلك في نقوش اهرامات Unas بسقاره . وكانت المعيشة الملكية في مصر في أول الأمر ، بعد توحيـد المملكتين ، غاية في الأبهة والعظمة ، ويتبين لنا منها بوضوح كيفية نشوء نظام البلاد الملكي بمعناه الحديث ، وكيفية نشوء مركز الوزراء .

كان للملك زوجة رسمية وكان ابنها ولي العهد ، ولكنه كثيرا

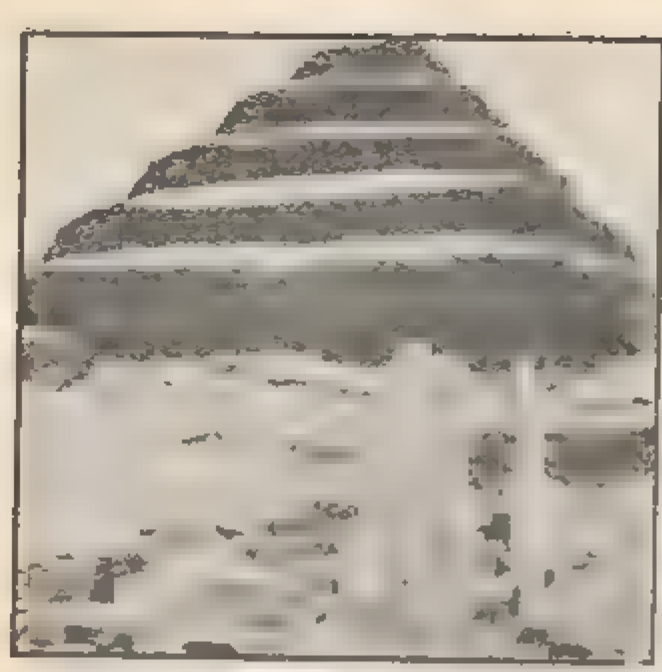
ما كان يتخذ زوجات أخريات له منهن أولاد ، وما كان الملك ليظلم أولاده من هاته الزوجات ، بل كان يسبغ عليهم ثروته ويربيهم أحسن تربية ويشركهم فى إدارة الحكم . أما ولى العهد فكان يمتاز بتربيته عن اخوته ، ويشترك فى الأدارة كرئيس للوزارة ، حتى يلم بشئون المملكة قبل توليته الملك .

وعند توحيد المملكة المصرية كان للملك أكبر نفوذ ممكن ، وكان حكام الأقاليم يطيعونه بكل ما يأمرهم به . وقد نقل هيرودوت ، مما كان يجرى على ألسنة القوم عند زيارته لمصر فى القرن الخامس ، ، أن بناء الهرم الأكبر تطلب مجهودات مائة ألف من العمال مدة عشرين سنة ، وسواء أكان لهذه الرواية نصيب من الصحة أو لم يكن ، فيمكننا أن نستخلص منها أن ملوك الأسرة الرابعة بلغوا من القوة والنفوذ والسلطان مبلغا عظيما .

لم يكن الناس حتى الأسرة الأولى القديمة يعرفون البناء بالحجر حتى جاء (زوسر) من ملوك الأسرة الثالثة فأسس هرم سقارة المدرج ، الذى يعتبر أقدم بناء من الحجر فى العالم .

وكثرت الأهرامات فى عهد الأسرات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة . أما الغرض من بنائها فكان حفظ أجساد الموتى ، لأن المصريين القدماء كانوا يؤمنون باليوم

الآخر وبالبعث بعـــد الموت كما سبق أن بينا غير أنهم كانوا يعتقدون أن الأجساد اذا فنيت، عذبت الأرواح وقضى عليها، فكانوا لذلك يعمدون



(هرم سقارة المدرج)

إلى تحنيط أجسادهم ، فينقعونها فى ماء النطرون ، ثم يستخرجون الأحشاء والأمعاء ، ويحشون مكانها التوابل والعقاقير المختلفة ، ويصمغون الجلد عدة مرات ، ثم يلفونه بالأربطة ، ويودعون تلك الموميات (الاجساد المحنطة) بطون تلك القبور الهائلة حتى لاتصل اليها يد العبث أو الفناء .

بنى خوفو الهـــرم الكبير كالطود العظيم . وأسس باقامته دعائم شهرته ، وادعى هيرودوت أن خوفو أغلق المعابد ومنع العبادة ، ثم ندم فى آخر أيامه ، على عسفه وضـــلاله . فاستقام فى أحواله وصار تقياً صالحا . وزعم هـــذا المؤرخ أن الناس

جميعا أبغضوا هذا الملك، وخلفه الذى بنى الهرم الثانى فنبذوا التلفظ باسمهما . وتعـــالوا فى كرههما . فأخرجوا جثتيهما من مرقدهما ، وقطعوهما إربا إربا، ثم دفنوهما فى مخابئ لم يتيسر لأحد العثور عليهما ، هذه هى المزاعم الاغريقية يرددها الناس حتى الآن فلا بد من تمحيصها



« صورة أبي الهول »

والواقع أن هؤلاء المؤرخين بالغوا كثيراً فى وصف عسف خوفو وخفرع . فالثابت أنهم لم يسخروا الناس فى العمـــل إلا وقت الفيضان ، وكان اذ ذاك وقتا يغمر فيه النيل الأرض، وتتعطل الحياة الزراعية ، إلى أن ينحسر الماء ، وان التسخير كان فى عمـــل فنى عظيم ، اكسب الشعب دراية فنية عظيمة ومهارة فائقة فى اتقان الصنع .

ولم نسمع عن قدماء المصريين ما يدل على قسوة كما سمعنا عن غيرهم من أمم الشرق القديم كالأشوريين

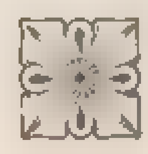
ولم يكن الملك المصرى من السلطة بحيث يعمل ما يريد ، فقد كان خاضعاً لقواعد مرعية ، لا يحيد عنها إرضاء لحاجة فى نفسه أو تشفيا من مسىء . ولا ينقض ذلك أن المصريين ألهوا ملوكهم ، وآلهة الوثنية لا تختلف فى صفاتها عن البشر .

ظهرت الاسرة الخامسة إثر الرابعة . وقد ساس ملوك هذه الأسرة البلاد سياسة لا بأس بها ، وشادوا اهراما ، وأصلحوا المعابد . إلا أن الاهرام التى بنوها أصغر كثيراً من اهرام الاسرة الرابعة ، ولكنها أجمل منها زينة ، وتمتاز المعابد الملحقة باهرام الاسرة الخامسة بعمدها المصنوعة من الخشب ، وبالرسوم الجميلة على جدرانها . ويتجلى الاتقان الذى بلغه فن الرسم أيام هذه الاسرة فى الرسوم المنقوشة على جدران قبرى (تى) و (تاح حتب) بسقارة .

وجاءت الاسرة السادسة بعد الاسرة الخامسة ، وفى أيام هذه الأسرة بدأ الضعف يدب فى سلطة الملك . ومما يدل على ذلك أن الأمراء وحكام الأقاليم ، بعد أن كانوا يدفنون بالقرب من الملك ، صاروا يدفنون فى بلادهم . وكانوا يقتتلون فيما بينهم فساد الاضطراب ، واختلت أحوال البلاد ، وانحط الفن المصرى

واغتصب الأمراء وظائف الدولة . واستقل حكام المقاطعات ، وصاروا يتنازعون فيما بينهم وعادت مصر إلى الانقسام الذى انقذها منه (مينا) منذ ألف سنة .

وظل الانقسام تتبعه الفوضى مخيما على مصر أيام الاسرتين السابعة والثامنة . وفى أيام الاسرتين التاسعة والعاشرة ، انحصر النزاع بين مدينتى هرقليوبوليس (مكانها اهناسيه) ومدينة طيبه (مكانها الاقصر) وانتهى هذا النزاع بسقوط هرقليوبوليس وانتصار طيبه .



الفصل السابع

المملكة المتوسطة أو العصر الاقطاعى

لما انتصر أمراء طيبـــه على (هرقليوبوليس) اخضعوا جميع مقاطعات مصر لهم . ووحدوا القطر من جديد .

غير أن تلك الوحدة تأسست على نظام جديد ، هو نظام الاقطاع . ويتلخص ذلك النظام فى أن مصر قسمت إلى عدة مقاطعات ، يحكم كل مقاطعة أمير يكاد يكون فرعونا فى مقاطعته ، يملك الأرض وما عليها . وكان الامراء يرثون الحكم عن آبائهم ، ولم تكن هنـــاك رابطة تربطهم بالملك إلا دفع قدر من المال لخزينته كل عام ، وامداده بالجنود اذا احتاج إلى ذلك . وكان الامراء بوجه عام يشعرون بواجب الولاء للملك ، غير أنهم كانوا إذا استضعفوا الملك ، يمتنعون عن دفع الضرائب ، ويحاربونه اذا أصر على أخذها . ومن أجل ذلك كان الملوك يقيمون حراسا لحمايتهم ، وكان هـــذا أول عهد لمصر بالجيوش القائمة .

تحت هذا النظام ، خدم ملوك الأسرة الثانية عشرة - أشهر نجوم ذلك العصر الزاهر - مصر خدمات جمة .

جاء (امنحتب الأول) فمـــلأ جو البلاد رغدا وسكينة

وافتخر قائلا : « لاجائع فى مدتى ولا عطشان تحت سلطانى »
حد هذا الملك فى إزالة الفساد الذى أوجدته الحروب الداخلية .
فأخذ يستميل إليه بعض الأمراء بتوسيع اقطاعاتهم ، ويعاقب
المشاغبين منهم ، بانتزاع أرضهم منهم ، ويتفقد البلاد مهتما
بمصالح الفلاحين . فأقام احجارا للحدود ، وبين لكل انسان
أرضه وأملاكه ، ووزع عليهم المياه بالعدل ، وأرسل الحملات
فأدبت العدو على الحدود ، وخلص الفلاحين من غاراتهم ونهبهم .

كان النظام الاقطاعى فى المملكة المتوسطة قائما على شخصية
الملك وبضعف ملوك الأسرة الثانية عشرة ، قامت الفوضى
فى مصر مرة ثانية . وأعاد التاريخ نفسه . على أن هذا النظام
الأقطاعى لم يكن خلوا من كثير من المحاسن ، التى أفادت مصر
أثناء وجود ملكية رئيسية قوية ، فتحسنت حالة الطبقات العامة
فى المقاطعات تحسنا كبيرا ، بل اعتقد بعض المؤرخين أن العامة
وصلوا إلى أحسن حالة فى عصر المملكة المتوسطة منها فى أى
وقت آخر من تاريخ مصر القديم ، وذلك لأن حكام الأقاليم
نظرا للمنافسة التى بينهم . أخذوا يتحببون إلى سكان مقاطعاتهم
كل فى مقاطعته . وإذا كانت المملكة المتوسطة هى العصر
الذهبى فى تاريخ مصر ، فذلك راجع إلى الرغد الذى تمتع فيه
العامة فى ذلك الوقت . ولكن لسوء الحظ لم يدم هذا النظام

طويلا ، فعادت الفوضى والانقسامات والحـــروب الداخلية إلى مثل ماكانت عليه فى نهاية المملكة القـــديمة ، وزاد الحالة سوءا تغلب عنصر أجنبي على المصريين هـــذا العنصر ، هو الهكسوس ، وهم قوم بدو رحالة ليس لهم مدنية غزوا مصر صاحبة المدنيـــة الكبيرة وقتئذ ، مما أدخل اليأس والقنـــوط فى نفوس المصريين .

اعتقد المصريون أن مصر مقدسة تقوم الآلهة دائما بحمايتها ، وأن أبوابها لاتفتح إلا للآلهة دون سواهم وتوصد فى وجه الأعداء . فلما رأى المصريون بأعينهم قوما عـــديمى المدنية يغيرون على مصر ، ويفتحونها عنوة ، ويقيمون لأنفسهم سيادة فعلية فى الوجه البحـــرى على الخصوص ، تأثرت عقيدتهم ونفسيتهم ، ممـــا ساعد الهكسوس على أن يمكثوا فى مصر مدة طويلة تعذر على المصريين أثناءها التفكير فى طردهم .

بدأ الهكسوس الأسيويون يغيرون على مصر فى أواخر الأسرة الثالثة عشر المشئومة ، ولسنا نعلم عن الهكسوس أو الملوك الرعاة أكثر من أنهم شعب ســـامى الأصل شجعتهم انقسامات مصر على الدخول ، فهبطوا الوادى المقدس عن طريق برزخ السويس ، واستطاعوا أن يجتاحوا الوجه البحرى وبعض أقاليم الوجه القبلى بدون عناء كبير ، وساعدهم على التمكن من مصر

بعض الزعانف من أمراء المصريين الذين يعدون السلطة حيثما ظهرت . وكان حكم هؤلاء الأجانب أشـــد مايكون بعضا إلى المصريين لا لأنهم عاملوا المصريين بقسوة وفظاظة ، ولا لأنهم حطموا الهياكل والمعابد فحسب . بل لأن عهدهم كان فى مصر أول حكم أجنبي عليها .

غير أن الهكسوس ابتلعتهم المدنية المصرية فلم يلبثوا بعد أن كانوا همجا حتى تحضروا واندمجـــوا فى المصريين وقلدوا أنماطهم وعبدوا آلهة مصر . ولكن على الرغم من ذلك لم يغفر لهم المصريون فتحهم لبلادهم . فكانوا يلقبونهم بالهمج والرعاة والكفرة ، احتقارا لهم وحطا من شأنهم .

وقر الهكسوس فى مصر أيام الأسرات ١٤و١٥و١٦و١٧ زمنا اختلف المؤرخون فى تقديره من قرنين إلى خمسة قرون كانوا يحكمون مباشرة من عاصمتهم أفاريس (فى برزخ السويس) أو بواســـطة ولاة من ملوك المصريين يحكمون باسم الهكسوس .

وغير الهكسوس أساليبهم العتيقة فى حكم البلاد . ولكن ذلك لم يغير من قلوب المصريين نحوهم .

وقرب آخر ايامهم ، استطاعت عدة ولايات فى الوجه القبلى أن تنفصل عن الهكسوس . وكانت اهم هذه الولايات طيبه التى

بدأ امراؤها أو ملوكها يشقون عصـــا الطاعة على الهكسوس ويجابهونهم بالعداء ، وما زالوا فى حروب مستمرة معهم ، حتى تم طردهم على يد (أحمس) مؤسس الاسرة ١٨

وأول ما نلاحظه على الحضارة أيام الدولة المتوسطة ، اتساع تجارة مصر وعلاقاتها الخارجية فتوغل المصريون فى اواسط السودان وابتاعوا من بلاد النوبه وبلاد بنت (السومال وعدن) ريش النعام وسن الفيل والعطور والطيوب ، ووصفوا رحلاتهم فى قصص طويلة مسلية ، ومن هذه القصص قصة البحرى الغريق ، وقصة سنوحيت ، وفيهما وصف ممتع للاماكن النائية عن بلادهم .

ان امثال هذه الرحلات البرية والبحرية ، التى كانت تتوغل فى الجنوب ، حتى تصل إلى المحيط الهندى ، وتتوغل فى الشمال حتى تدرك بلاد فلسطين وفينيقيا ولبنان وجزائر اليونان واليونان نفسها ، والتى كان يدون اخبارها ويصفها الربابين ومن معهم من الادباء هى اساس الأدب المصرى القديم ، الذى كان يتميز به عصر الاقطاع ، كما يتميز عصر الدولة القديمة بالابنيـــة الضخمة كالاهرام . وقد وضعت فى ذلك العهد جملة صالحة من الاناشيد والاشعار ، كما الفت اول رواية تمثيلية فى العـــالم وهى درامة (اوزوريس) أول إله سكن مصر ، والتى صورت فيها حياته ومماته ودفنه وبعثه ، والتى كانت تمثل كل عام ، فيشترك فى تمثيلها عدد عظيم من

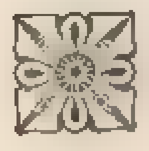
الناس . كذلك تقدم علم الطب والعلاج ولا تزال بعض الادوية والمعالجات التي كان يصنعها الاطباء المصريون قديما لمرضاهم فى تذاكرهم الطبية (الروشتات) كزيت الخروع والحجامة والكى ، تستعمل إلى وقتنا هذا . وتقدمت فى هذا العهد ايضا العلوم الرياضية والفلكية وألفت كتب فى الحساب على النظام العشرى الذى لا يزال مستعملا الى الآن كما وضعت مبادىء الهندسة والجبر واخترعت آلات بسيطة لرصد الاجرام السماوية .

وترقت الادارة الحكومية فكان يعمل كل بضع سنين إحصاء دقيق ، يعتمد عليه فى جباية الضرائب ، كما أنشأ (أمنمحمت الثالث) مقياسا للنيل عند حصن سمنه (الشلال الثانى) لينبىء بحالة الفيضان ، لكى تتناسب الضرائب مع مقدار الفيضان . ولقد أقيمت فى هذا العصر السدود والخزانات فأخصب خزان بحيرة (موريس) الذى أنشأه (أمنمحمت الثالث) مايقرب من ٢٧ ألف فدان من أقليم الفيوم وحده ، فكانت الحكومة منذ ٤٠٠٠ سنة تفكر فيما يشغل بال الحكومات فى وقتنا هذا .

وكان لمصر أسطول ضخم ، وصل إلى جزائر اليونان ، واستولى على كريد وغيرها من الجزائر وكانت السفن المصرية تأتى من بحرايجه ، فتدخل أحد فروع النيل ، ثم تسير إلى أن تصل

إلى قناة (سيزوستريس) وإلى البحر الاحمر وإلى بلاد بنت وإلى المحيط الهندى الذى كان يعتبره المصريون آخر حد للدنيا .

ولم يهمل المصريون الصناعة فى هذا العصر . فحذقوا صناعة الحلى الدقيقة . ونظرة واحدة إلى قاعة الذهب فى المتحف المصرى تترك الانسان حائرا من جمال مايرى . أما مبانى هذا العصر فكانت تمتاز بالدقة والتناسق وحسن الذوق والرشـــاقة ، على عكس مبانى الدولة القديمة التى كانت تمتاز بالفخامة والعظمة .



الفصل الثامن

حرب الاستقلال وعصر الامبراطورية

لم يبدأ هذا الحرب أحمس ، بل بدأها ثلاثة هم (سكنن رع الأول) ملك طيبه و(سكنن رع الثانى) و(سكنن رع الثالث) .

وفى عهد هذا الأخير ، كان ملك الهكسوس الذى يحكم من أفاريس ، هو (أبابى) وقامت بين هذا الملك المغتصب ، وبين (سكنن رع) ، حرب لانعلم من تفاصيلها ، سوى أن البطل (سكنن رع) مات فيها . فليسجل له التاريخ مجـد الوطن . والناظر إلى مومياء سكنن رع الثالث فى متحف القاهرة ، يرى آثار الجروح الفظيعة ، التى أصـابت رأس ذلك الملك الشجاع المقدام ، فإن جبهته قد شجت بضربة بلطة ، ولا يزال الشعر ملبدا بالدم حول الشج وأصابت بلطة أخرى الجمجمة فوق العين فبرز بسببها المخ ، وترى فى الخد وخزة من سن سيف ، وترى الألم باديا على وجه المومياء ، وقـد ضغط الملك بأسنانه على لسانه حتى خرقه .

ونجح (كاموز) بن (سكنن رع) فى طرد الهكسوس من الوجه القبلى حتى مدينة منف ، تاركا لأخيه (أحمس) مهمة

إجلاء الهكسوس عن مصر تماماً .

لقد كانت مهمة (أحمس) من أشق المهام . فقد كان فرضا عليه ، أن يطوى الأمراء تحت جناحيه . وقد رأى من حسن السياسة ، أن يضمن الحالة فى الجنوب ، خيراً من حرب تستبقيه أعواما طوالا فى الشمال . فتزوج من ابنة ملك (اثيوبيا) ، الذى أمده بجيش من جنوده الاشداد . ولم يكد (أحمس) يبدأ بالزحف إلى الشمال حتى كانت جماهير المتطوعين من المصريين تتدفق إلى جيشه لتخلص البلاد من الأعداء .

استمرت هذه الحرب نحوا من خمسين سنة ، وختمت باستيلاء الأمير أحمس على منف ، وإخراج الهكسوس من مصر . وجلا مع الهكسوس الاسيويون المقيمون فى مصر تحت ظلهم ، وبعض المؤرخين يظن أن ذلك الجلاء أساس القصة الموجودة فى الكتب المقدسة ، عن إقامة بنى إسرائيل فى مصر وخروجهم منها مع موسى . وبعضهم يظن أن خروج الأسرائيليين أمر آخر ، لاعلاقة له بجلاء الهكسوس ، وأنه حدث فى عهد منفتاح ابن رمسيس الثانى .

وقد دخل تاريخ مصر بعد استقلالها ، فى دور فتح عظيم ، وذلك أن حرب الاستقلال ، بعثت فى المصريين روحا حربية ، طوحت بهم وبملوكهم فى الفتح ، طلبا لزيادة التشفى من أعدائهم ،

بعد أن تعلموا منهم فنون الحرب ، وأخذوا عنهم استعمال الخيل والعجلات فى القتال . فتعقبوهم إلى مواطنهم الأولى فى آسيا .

وأمعن المصريون فى الفتح ، لما وجدوا الحالة فى آسيا مما يسهل عليهم تشييد ملك عظيم .

وذلك أن نفوذ الهكسوس الممتد من مصر إلى عرب الفرات ، تقلص بعد هزيمتهم فى مصر ، وكانت بابل إذ ذاك تحت حكم أسرة أجنبية ، ولم تكن قد قامت بعد دولة الحيثيين التى ستصبح أكبر أعداء مصر . فسهل على خلفاء أحمس التغلب على فلسطين وسوريا . وبذا كان أحمس واضع الحجر الأول فى بناء الامبراطورية المصرية الشامخ ، الذى أتمه أخلافه ملوك الأسرة ١٨ .

ولقد توغل المصريون فى الفتوحات . بعد إنشاء الامبرطورية ، فزادت ثروة مصر ، واستفاد منها المصريون ، وخصوصاً طبقة الأشراف ، وحكام الأقاليم ، الذين وجدوا من مصلحتهم الانصراف عن مشاغبة الملك ، وأن يلتفوا حوله حتى يكون له نصيب من الثروة العائدة على مصر من الفتوحات الخارجية . فارتفع بذلك شأن الملكية المصرية فى مصر ، حتى أن الملك أصبح له نفوذ فعلى فى جميع الشؤون على جميع المقاطعات . وليس أدل على المركز الذى وصلت إليه الملكية ، من نداء الملك

(تحتمس الأول) ، ثالث ملوك الأسرة ١٨ يخاطب رعيته « هذا مرسومى إليكم ينبئكم بأن جلالتى تبوأت عرش هورس الحى وإنه لامماثل لى إلى الأبد . أنا صاحب الجلالة ملك الأرضين ، أنا الملك الأعظم ملك مصر العليا والسفلى ، قوموا إذاً بتقديم القربان إلى الآلهة ، ورتلوا الأناشيد إليها كى تباركوا الملك وخذوا أيمانكم من الآن باسم جلالتى » .

وبلغ من عظم شأن الملوك أن جميع عمال الحكومة ، مهما كانت درجتهم ، سواء أكانوا حكام مقاطعات أم عمالا فى الحكومة الرئيسية فى العاصمة ، كانوا جميعاً مسؤولين شخصياً أمام الملك ، وكان الملك مشتركا اشتراكا فعليا فى إدارة شؤون المملكة ، يساعده فى ذلك وزيره الأكبر ، بصفته رئيس عمال المملكة المصرية . ولكن نظرا لتراكم الأعمال ، ونظرا لأن طيبة لم تكن فى مركز متوسط فى القطر المصرى ، نرى (تحتمس الثالث) يقسم رئاسة الوزارة بين رجلين ، أحدهما يستبقيه معه فى العاصمة ليستشيره فى مهام الأمور . والآخر وضعه فى (ممفيس) ليقوم بالاشراف على الجزء الشمالى من المملكة المصرية . وسرعان ما استحالت المملكة المصرية فى ذلك الوقت ، إلى امبراطورية عظيمة تمتد شمالا فى فلسطين والشام ولبنان ، وشرقا إلى الفرات ، وجنوبا إلى النوبة ، وكانت هذه الأملاك خاضعة لسلطان الملك

وسيادته ، حيث كان له سلطان وسيادة فى مصر ، وفى الأملاك المصرية أيضاً .



[illegible] الامبراطور الأعظم (تحتمس الثالث) لدى [illegible]
[illegible] الامريكي [illegible] مصر

ولما تولى تحتمس الثالث الحكم فى مصر دوخ مــلك (قــادش) واحــلافه فى معركة (مجدو) وأخذ يروح ويغدو إلى آسيا سبع عشرة مرة وقعت فيها آسيا تحت قدميه ، وزلف إليه مــلوك آشور وبابل والحيثيين والميتانى ، فقدموا له الخضوع وحملوا إليه الجزية ، فوفروا عليه مشقة الحرب ، واجتاح اسطوله سواحــل فينيقيا وآسيا الصغرى وقبرص وكريد ورودس وغــيرها من جزائر البحر الابيض المتوسط ، وإذا بالامبراطور الأعظم وهو فى السبعين من عمره لايعرف الراحة ، فيقود حملة إلى بلاد النوبة ، ويتوغل بها فى مجاهل السودان ، والمراسلون الحربيون فى كل حروبه ، كما تفعل

أرقى الجيوش الآن ، يدونون يوما بيوم وبالتفصيل حوادث الحرب والفتح .

كذلك كونت أول امبراطورية فى الأرض .

ولقد كان تأسيس هذه الامبراطورية خلقا جديدا لمصر ، إذ تغيرت الحالة من جميع النواحى ، وأصبحت الدولة حربية بكل معانى الكلمة ، وصارت الجندية هى الطريق الوحيد لكسب المال والشرف حتى أحقر حقير . حتى العبد ، كان يأمل بانضمامه إلى الجيش فى الوصول إلى أعلى مناصب الدولة .

وكان فى مصر طوال عهد الامبراطورية ، ثلاث أحزاب قوية : حزب الكهنة والحزب العسكرى وحـــزب المحافظين (أو حـــزب الوراثة الشرعية) وكانت هذه الأحزاب تدفع مرشحيها لا إلى البرلمان ، ولكن إلى العرش . فحزب المحافظين كان يرى ضرورة أن يرث الابن الشرعى أباه فى العرش ، وكان هذا الحزب يعضد وراثة (حتشبسوت) لأبيها فى العرش ، بينما كان يعضد حزب الجيش (تحتمس الثانى) وحـــزب الكهنة (تحتمس الثالث) لأنه قضى حياته الأولى فى المعبد .

والملكة (حتشبسوت) ، أقوى ملكات مصر ، كسبت بحذقها ونفوذ حـــزب المحافظين المصريين (حزب الوراثة الشرعية) كيان أخويها (تحتمس الثانى) والثالث . فتزيت بزى الرجال

وخوطبت بلقب (صاحب الجلالة) ، وبعثت بحملات إلى بلاد (بنت) وعادت سفنها محملة بالتوابل والعطور والسنانير والزراف وريش النعام فدونت أخبارها على معبدها فى الدير البحرى .

وكانت طريقة الحكم فى عهد الامبراطورية تشبه الطرق المستعملة فى عصرنا هذا . فكانت البلاد المجاورة لمصر كفلسطين تخضع للحكومة المركزية . أما فى بلاد سوريا وقبرص وكريد ، فكان الأفراد الوطنيون يحكمون بلادهم ، وكان الامبراطور يعين مع كل ملك موظفاً سامياً مصريا ، له الأمر والكلمة العليا ، وعلى الأمراء الطاعة والتنفيذ ، وكان هؤلاء الموظفون المصريون يشرفون على جباية الضرائب ، تعضدهم حامية مصرية ، وكان أبناء الأمراء يبعثون إلى مصر ليكونوا رهائن على سلوك آبائهم ، وليتعلموا على النظم المصرية ، حتى اذا ما آل اليهم الملك خدموا الامبراطورية خدمة صادقة . أما البلاد البعيدة فكانت تبعث إلى مصر هدايا بانتظام ربما فاقت جزية المستعمرات الاخرى .

وكانت (طيبة) المدينة الخالدة ، مركز ذلك الملك الشاسع ، وكان النيل يفصلها إلى قسمين : طيبة الغربية وطيبة الشرقية . فأما الأولى فكانت تسمى مدينة الأموات ، يكتنفها من الغرب واديان عظيمان ، هما وادبا الملوك والملكات ، اللذان نحت ملوك وملكات الامبراطورية قبورهم فيهما على شكل سراديب تنحدر

فى باطن الجبل عشرات الأمتار وتنتهى بردهات وحجر يوضع فى أقصاها وأبعدها غورا تابوت الملك . وبين (بيبان) الملوك والملكات ونهر النيل ، تقع عدة معابد جنائزية ، كان الغرض من بنائها أن يصلى فيها على أرواح الموتى ، وأن تقدم القرابين للآلهة ، لكى يسهل على الفراعنة اجتياز العالم السفلى ، حتى يصلوا الى ملكوت (اوزيريس) حيث يزن الاله (انوبيس) أعمالهم فى الميزان ويقيـــد الإله (توت) نتيجة الميزان ثم يقدم الإله (حوريس) من ثقلت موازينه إلى حظيرة (أوزوريس) كبير الألهة ليدخله جنـــة الآخرة ، وأما من خفت موازينه فتتلقفه آلهة كالوحوش الكاسرة . تلك هى (طيبه الغربية) مدينة الأموات .

أما (طيبة الشرقية) فكانت مدينة الأحياء ، وكانت عامرة بقصور الملوك والأمراء ، وغاصة بمساكن الطيبيين ومعابد الآلهة وبخاصـــة (آمون) إله طيبه وزوجته الإله (موت) وإبنهما الإله (خنسو) .

ولنرجع القهقرى بالخيال ، إلى عصر (أمنوفيس الثالث) (الأسرة ١٨) لنرى (طيبة) فى أزهى عصورها .

كان قصر فرعون على ضفة النيل ، تحيط به الأشجار الجميـــلة وتحفه المهابة والوقار ، ويملأ ساحته الحرس الأشداء . وكانت

قصور الأمراء والوزراء تكتنفها الحدائق الغناء ، وتسبح في بحيراتها الصناعية خفاف القوارب والأسماك ، وكان معبد الاقصر قد صفحت أراضيه بألواح الفضة وزخرفت نقوش جدرانه بالذهب واكرم الأحجار .

وكان طريق الكباش الرابضة يؤدى إلى معابد الكرنك ، حيث البحيرة المقدسة ، وحيث يضل السائر في ساحاتها الشاسعة بين آجام الأعمدة الراهية وشوامخ المسلات . ورهط الريفيات يردن المدينة : تلك تحمل على رأسها جرة فيها نبيذ ، وهذه تتأبط حزمة من غزل الكتان ، وتلك تسوق قطيعا من الغنم . وهذه تبحث عن حانوت الكحال ، وتلك ترتاد ناحية النجاد . وبينما المدينة في حركة ، اذا فجأة يهرول جماعة من جند القصر الملكى من ناحية المعبد ، يهتفون بالناس أن أفسحوا الطريق ، ثم تمر أميرة من بنات فرعون ، يحملها عبيدها السود ، على محفة غاية في الرواء ، فيحييها الناس برفع أيديهم وبالانحناء .

وفى إحدى ميادين العاصمة ترى قبيلا من رجال ونساء وأطفال ، يلبسون ثيابا مختلفة ، ويتكلمون لغات مختلفة ، وقد وقف في وسطهم فيال ، تقفز على ظهر فيله الضخم القردة والنسانيس فيتفكه بمرآها الناس .

ثم نرى حشدا من الناس يزدحمون بالمناكب عند أرصفة



تمثال لاميرة من أميرات العصر الملكي

(طيبة) ليروا السفن الآتية من الجنوب والشمال ، تحمل الجزية لفرعون وأسرى المستعمرات ، فيسر الناس لرؤية الغنى يتدفق إلى بلادهم ، والأسرى مكبلين بالأغلال والاصفاد ، يساقون إلى الخدمة فى الحقول واقامة المعابد (لآمون رع) مصدر الخيرات . وترى الرسامين يصورون أولئك الأسرى التعساء صوراً كاريكاتورية على قطع من الخشب (كالكارت بوستال) يبتاعها الناس ويتهكمون بالضحك عليها .

ذلك كان مرأى الحياة فى طيبه ،منذ ثلاثمائة وثلاثة آلاف عام عند ماكان الامبراطور امنوفيس الثالث أعظم رجل فى العالم .

ولما جاء (امنوفيس الرابع) ابن (امنوفيس الثالث) قام برجة هائلة . زلزلت عقائد الناس ، وهزت دعائم الامبراطورية المتينة . كما فصلنا فى باب الديانة عند قدماء المصريين .

ولقد كان (اخناتون) حقا أول فيلسوف فى العالم دعا إلى الحق والهدى ، وكانت صيحته أول صيحة بالوحدانية ، فى وقت كانت الوثنية فيه فى حصنها الحصين . ولكن العالم إذ ذاك لم يكن مستعداً لاجابة مثل هذه الدعوة ، وجاء نبي الفراعنة قبل أوانه بعشرات القرون .

وأدرك أعداء مصر أن فرعون قد انقلب قديسا نبيا

فأغاروا على أملاك الامبراطورية فى الشمال ، ويسجل التاريخ اخلاص الموظفين المصريين فى هذه الناحية ، فقد بحت أصواتهم من طلب النجدة ، وترقب الأوامر من (طيبة) ولكن (اخناتون) لم يكترث لعرض الدنيا ، وركز جهوده وعبقريته لخدمة دينه الجديد ، وبلغ السيل الزبا ، فامتنعت المستعمرات عن دفع الجزية ولكن اخناتون لم يتحرك .

وأخيراً مات اخناتون تاركا وراءه طفلا ضعيفا لامبراطورية ، كانت بالأمس عظيمة ، وخزانة خاوية ، وخلفه من بعده ، كهنة ثائرين يرغبون فى الانتقام ، وجيشاً غاضباً وشعباً حانقا .

ولم ينجب (اخناتون) ذكورا فتولى من بعده (سكارع) زوج ابنته ، ولم يكن حكمه مهماً ثم تلاه (توت عنخ آمون) زوج ابنته الأخرى ، فكان فى مبدأ حكمه مخلصا لآتون ثم لم يلبث أن طواه الكهنة ، فاذا به يبرح مع بلاطه (اخيتاتون) ثم يعود إلى (طيبة) ، فيصدر أمرا باعادة عبادة (آمون) ، ثم يغير اسمه من (توت عنخ آتون) إلى (توت عنخ آمون) ويأخذ فى اصلاح معابد (آمون) التى خربها حموه ثم يملؤها تماثيل الآلهة الذهبية ، ثم يبالغ فى مرضاة كهنة آمون ، فيجزل لهم العطايا ويعيد النظام القديم بحذافيره .

وهكذا يتم فشل أخناتون وبفكرة فلسفية سامية تضيع أولى أمبراطوريات العالم .

ثم تسقط الأسرة الثامنة عشرة بعد وفاة (توت عنخ آمون) بقليل ويؤسس (حرمحاب) الأسرة التاسعة عشرة ، وإذا (بسيتى الأول) يحاول أن يسترد امبراطورية (تحتمس الثالث) فلا ينجح إلا فى استرداد فلسطين لأن الحيثيين من سكان آسيا الصغرى ، الذين بدأوا الغارة على المستعمرات المصرية أيام الفيلسوف (أخناتون) كانت قد رسخت قدمهم فى سوريا .

ولما أتى دور (رمسيس الثانى) ، أشهر فراعنة مصر ، حاول أن يسترد من جديد امبراطورية (تحتمس الثالث) فأصاب القصد ، ولكن أخطأه التوفيق ورضى ، بعد حروب عدة وبعد انتصاره على الحيثيين وحلفائهم فى معركة (قادش) التى أظهر فيها شجاعة نادرة خلدت أسمه فى سجل الشجعان فى العالم أن يقنع من انتصاراته العديدة ، بمعاهدة هجومية دفاعية ، بينه وبين ملك الحيثيين ، يلقب فيها بملك مصر الأكبر ، بينما حليفه (ختاسار) يلقب بأمير الحيثيين ، ولكن المعاهدة لاترد لمصر إلا فلسطين ، ثم يتزوج (رمسيس) من ابنة ملك الحيثيين ولا تروى الحروب غلته فيطفئ غروره بإقامة التماثيل والمعابد ينقش على جدرانها قصائد شاعره (بنتاءور) فى تمجيده

ووصف معركة (قادش) أهم معارك (رمسيس) . ويستبطىء النحاتين والمثالين فى صنع تماثيله الهائلة العديدة فيضحون الفن فى سبيل الكثرة ولايكتفى بهذا ، فيمحون أسماء أسلافه من على تماثيلهم ومعابدهم ويضعون عليها اسم (رمسيس) .

ومات رمسيس ، وقد نيف عمره على قرن ، تاركا وراءه عدة زوجات و ١١١ ولدا و ٥١ بنتا لابنه العجوز (منفتاح) .

وثارت فلسطين فى عهد (منفتاح) فأخضعها ، وعاد ليخضع من أغاروا على الدلتا من اللوبيين وسكان جزائر البحر الأبيض المتوسط ، وربما كان (منفتاح) هذا هو فرعون موسى الذى خرج فى عهده بنو اسرائيل من مصر .

وعاد اللوبيون إلى الاغارة على مصر مرة ثانية ، فهزمهم (رمسيس الثالث) من الأسرة العشرين .

وقوى نفوذ الكهنة فاتخذوا من الرماسسة بقيـــة ملوك الأسرة العشرين ألاعيب يفعلون مايؤمرون .

وقفز (حرحور) رئيس الكهنة إلى عرش مصر فكون أسرة من الكهنة هى الأسرة الحادية والعشرون ففقدت مصر فى عهدها طورسينا وفلسطين .

وشاء القدر الساخر أن يجلس على عرش مصر (شيشنق) الأول ملك اللوبيين ، فيتخذ من مدينة بوسطة (تل بسطة عند

الزقازيق) عاصمة للأسرة الثانية والعشرين .

وتتحرك دماء الفراعنة فى (بعنخى) فيخرج من بلاد النوبة المنحصرة منذ مئات السنين فيستولى على (منف) ، ويكون كهنة آمون الأثرياء بسلطانه ، الأسرة الثالثة والعشرون .

واستقل بالوجه البحرى أمير سايس (صالحجر) الملك (بخوريس) فأسس الأسرة الرابعة والعشرين ، بينما ظل الوجه القبلى تحت حكم النوبيين المصريين . وتطلعت من أقصى الشرق عيون الأشوريين إلى مصر ، فاتهموا المصريين بمساعدة أهل الشام الثائرين ، فاستولى على الدلتا (آسرحدون) ملك الأشوريين وأسس الأسرة الخامسة والعشرين ، واستجمع الملك (طهراقه) فى الجنوب قوته وطرد الأشوريين . فعادوا بعد حين ، ودمر ملكهم (اشور بانيدال) طيبة الخالدة ، مدينة آمون .

وظلت الحرب سجالا ، بين النوبيين والاشوريين ، كل يريد الاحتفاظ بمصر ، فاغتنم الفرصة أمراء الدلتا المصريون ، وقاموا بمساعدة المرتزقة من جنود الاغريق ، فطردوا هؤلاء إلى الشمال ، واولئك إلى الجنوب ، واستقلوا بمصر مكونين الأسرة السادسة والعشرين .

وأعاد فراعنة هذه الأسرة العظام (ابسماتيك) و (نيخاو) و (أبريس) إلى مصر استقلالها المسلوب وزهاء مجدها القديم :

فجمع (ابسماتيك) للدفاع عن اســتقلال البلاد، جيشا من مرتزقة الاغريق، الذين اعتمد عليهم وشجعهم على الاستيطان فى البلاد، وعمل على تنمية الزراعة والصناعة. وقد بدأت مصر أيامه تحيــا بعض الشىء. ويسمى المؤرخون ذلك الدور من تاريخها، بعصر النهضة المصرية.

ولم تكن تلك النهضة إلا محاكاة المصريين لحضارتهم السابقة، وتقليدهم الفنون والآداب الأولى، والمبالغة فى ذلك حتى أعادوا كل شىء كما كان عليه، ولم ينسوا أتفه الأشياء. ويجب أن لايغرب عن البال أن مصر بذلك لم تستعد شــبابها الأول، بل كانت كالرجل الهرم، يقلد الشاب فى هيئته، ويخفى أثر الكبر فيه بالدهان.

وقوى (نيخاو) الجيش والأســطول، ففتح بهما فلسطين وسوريا، وتوغل فى العراق، ثم وصــل البحرين الأبيض بالأحمر عن طريق النيل، وبعث أول بعثة استكشافية فى العالم، فطافت حول افريقية، وتمت رحلتها فى ثلاث سنين.

وفتح (أبريس) سواحل فينيقيا بأسطوله الضخم، وملأ صفحة مصر بمعابد ضخمة كمعابد العهــد القديم. واشتد ميله إلى الأجانب، وبخاصة الاغريق، فثار عليه المصريون، وولوا مكانه قائد جنده.



« بهو الأعمدة فى معبد آمون الكبير بالكرنك »

وتبع (أحمس الثانى) سياســـة (أبريس) حتى أنه أقطع الاغريق أرضا غرب الدلتا . أسسوا عليها مدينة (نقراطيس) ،

ثم رأى (أحمس الثانى) من وراء الأفق بزوغ نجم الفرس فاتحد مع البابليين ، ليقيم منهم ســدا يحمى استقلال مصر ، خانه التقدير فاكتسح الفرس البـــلاد فى عهـــد خلفه ، ودخل مصر ، الطاغية (قمبيز) محطما مخربا ، وكون لاخلافه الأسرة السابعة والعشرين .

وثار المصريون على الفرس عدة مرات ، فَغَلَبُوا وَغُلِبُوا ، وسجل التاريخ ، اسم الأمـــير المصرى (أناروس) الذى ثار بمساعدة الاغريق على الحكم الفارسى ، فانتصر أولا ثم صلب

أخيراً ، واسم الأمير المصرى (أمرتوس) الذى جدد الثورة واستطاع أن يعلن اســتقلال البلاد . فزارها المؤرخ اليونانى (هيرودوت) فى ذلك العهد المستقل وكتب تاريخها المجيد .

وعاد الفرس فهزموا المصريين ، ثم قامت حماسة الشعب تحت قيادة (أمرتوس) آخر . فطرد الفرس وأسس الأسرة الثامنة والعشرين وتمتعت مصر بعهد استقلال فى ظل هذه الأسرة والأسرة التى تلتها ، وهى الأسرة التاسعة والعشرون ، وحسن حالها ، واستعادت شــيئاً من رخائها . فاذا كانت أيام الأسرة الثلاثين ، عاد الفرس مرة أخرى ، لفتح مصر ، فاســتبسل المصريون فى الدفاع عن وطنهم ، فهــزموا الفرس ، وردوهم على أعقابهم خاسرين .

وملأ ملوك الأسرة الثلاثين البلاد خيرا ورغدا ، وترقت الصناعات ، وتقدمت العلوم . ولكن هذا الرخاء لم يدم طويلا ، إذ عاد الفرس وهجموا على البلاد فى عهد الملك (نقطنبو الثانى) آخر ملوك الأسرة الثلاثين ، فقاتلهم جيش من المرتزقة الاغريق الذين خافوا ومكنوا الفرس من المصريين . وقاسى المصريون الآلام ، بسبب الاعتماد على غيرهم ، فى الدفاع عن استقلالهم ، وحصدوا ثمرة هذا الاهمال المشين . وقر الفرس بمصر زمنا عاثين ظالمين ، حتى صرعهم (الاسكندر المقدونى) فطردهم من مصر .

الفصل التاسع

الحالة الاجتماعية عند قدماء المصريين

كانت الاسرة عند قدماء المصريين كما هى الحال إلى الآن ، فى جميع الأرياف المصرية ، هى النواة الاجتماعية . وكانت مرتبطة وحافظة لكيانها ، فكان الرجل وزوجه وأولاده كل واحد منهم مختص بوظائف يقوم بها لسد حاجيات الأسرة . وبالرغم من أن بعض قدماء المصريين كانوا يتزوجون بأكثر من زوجة واحدة ، إلا أن أغلبية الشعب كانت تقتصر على زوجة واحدة ، وكانت حالة البلد الاقتصادية نفسها تحول دون تعدد الزوجات ، بين الطبقات الفقيرة . وبالرغم من أن الطلاق كان محللا عندهم ، إلا أنه كان أمرا مبغوضا فى نظر المصريين القدماء . حتى أن حكامهم كانوا يعظون المصريين ، بأن لا يطلقوا نساءهم ، ويتضح ذلك من هذه العبارة « إن من أحب امرأة وأحبته وهى عذراء ، ثم تركها بعد أن تزوجها فإن ذلك يكون عملا آثما أمام الله وأمام الناس » . كل ذلك كان من شأنه تدعيم بناء الأسرة ، والعمل على المحافظة عليها . وتتجلى هذه

النزعة ، فى كثير من تعاليم قدماء المصريين ، التى حضت على أن يحترم الأولاد آباءهم وأمهاتهم ، حتى أنه كثيرا ما كان احترام الآباء والأمهات يتخذ وسيلة للتقرب إلى الله . وكثيرا ما عثر على هذه العبارة منقوشة على مقابرهم ، « كنت بارا بوالدى ، يحبنى أبى ، وتحبنى أمى ، ويحبنى أخواتى » كذلك كانت التعاليم المصرية تحتم على الرجل ، أن يحترم المرأة . ويحترم زوجه ويخلص لها . وإليك وعظ واعظ مصرى قديم حيث يقول : « إن الله أعطاك أما حملتك مع ضعفها ، ثم وضعتك وأرضعتك ثلاث سنين ، وربتك واعتنت بأمرك ، والآن وقد بلغت سن الرجولة ، وتزوجت وأنشأت لك بيتا ، فيجب عليك أن تلتفت إلى ابنك بكل ماوهبت من قوة ، وأن تعتنى به ، كما اعتنت بك أمك من قبل ، وإياك وغضب الأم ، فإنها إن تضرعت إلى الله وشكتك إليه ، فان الله سيسمع لها ويعاقبك » .

وكان للمرأة عند قدماء المصريين مركز لايستهان به ، فكانت تشترك فى الحياة العملية من الوجهتين الاجتماعية والاقتصادية ، وخصوصا بين الطبقات الفقيرة ، وفى المتحف المصرى بالقاهرة ، يرى الزائر من التماثيل ما يبين له النساء ، يشتركن فى الأعمال الجدية مع الرجال ، ويقمن بوظائفهن فى مجارى الأعمال الاقتصادية ، وفى هذا المتحف تماثيل

تستعرض الملك، وهو جالس على العرش وبجانبه الملكة، وقد وضعت ذراعها حوله بكل شفقة ومحبة. مما يدل أيضا على أن الطبقات الراقية من النساء، وعلى رأسها الملكة، كثيرا ما كن يشتركن فى الحياة العامة. وبلغ من مركز المرأة عند قدماء المصريين، أن مصر حكمها فى تاريخها القديم عدة ملكات. نخص بالذكر منهن الملكة (حتشبسوت) التى بلغ بها الحد أنها كانت فى الحملات والأعمال الرسمية، تتزيى بزى الرجال، وحدث فى تاريخ مصر فى القرنين السادس والسابع قبل الميلاد، أن المرأة كثيرا ما كانت تتولى أهم الوظائف الدينية، حتى أن بعضهن وصلن إلى أن أصبحن رئيسات لكهنة الإله (آمون) فى (طيبة).

كما أن التعاليم المصرية كانت تحث على أن يعامل الرجل زوجه أحسن معاملة، مما يؤدى بالطبع إلى تماسك أجزاء الأسرة فى الحياة المصرية. من ذلك كلام الحكيم (فتاح حتب) الذي كان حاكما لمنفيس حوالى ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد، والذى كان من أحسن الكتاب والأدباء عند قدماء المصريين. والذى استدعاه الملك فى ذلك الوقت ليقوم بتربية ولى عهد المملكة، والذى وضع من أجل ذلك مجموعة كبيرة من الحكم، أصبحت مستوى للأخلاق عند قدماء المصريين. وكان الأولاد فى المدارس

يتعلمون هذه الحكم حتى فى عصر الامبراطورية ، ويكتبونها على ألواح أشبه شيء بالاردواز ، ثم يمسحونها ليجددوا غيرها .

من هذه الحكم ما يختص بمركز المرأة ، ومعاملة الزوج لزوجته حيث يقول «كن سيدا فى منزلك ، وأحب امرأتك حبا خالصا ، أعطها كفايتها من الطعام واللبـــاس ، واشترى لها العطر والكماليات ، واجعلها سعيدة مادمت حيا . فإن المرأة مرآة لزوجها ، ينعكس فيها مايبذله فى سبيل سعادتها ، ولا تكن خشنا فى بيتك فاللين يحرك قلب المرأة ، والغلظة تستفزها ، أعط امرأتك كل ما تريد إن كان لك إلى ذلك سبيل ، وأرضها تعش سعيدا ، وإلا كان مصيرك الخراب . قربها وسمها أسماء معززة ، وتحملها واحترمها واظهر لها ميلك وحنانك دائما » .

وكان هناك عدة طبقات اجتماعية فى مصر ، وبالرغم من أن هذه الطبقات ظلت مدة كبيرة ، وهى محافظة على كيانها دون أن يحصل اندماج كبير بين طبقة وأخـــرى ، إلا أنه لما قامت الامبراطورية فى مصر وقامت ظروف استثنائية ، أدى ذلك إلى تغيير مركز الطبقات الاجتماعية . وكان هناك :

طبقة الأشراف : وكانت تشمـــل أفراد الأسرة المالكة وأفراد الأقاليم ، وكانت لهم ثروة عظيمة ، وكانوا يعيشون فى سعة ونعيم ، خصوصا فى أيام ضعف الملكية حيث كانوا

يستأثرون بالسلطة والثروة .

وطبقة الأغنياء : الذين هم من الملاك غير الأشراف ، وكان ظهورهم متأخرا . وفى عصر الامبراطورية قام فى مصر طبقة غنيـــة أخرى غير طبقة الملاك ، وهم التجار الذين انضموا إلى طبقة الملاك ، وكونوا فيما بينهم الطبقة الثانية .

والطبقة الوسطى العليا : وكانت فى العصور الأولى ، مكونة من الصناع كصياغ الحلى ، ودباغى الجلود ، والنجارين ، وصناع الخزف . وفى عهد الدولة المتوسطة ، انضم إلى هذه الطبقة عدد آخر من الكتبه والناسخين ، كانوا يشتغلون فى أعمال الحكومة والأدارة ، سواء فى العاصمة أو فى البلاد . لأنه لم يكن هناك طبقة غير هذه ينضمون إليها . ثم فى عصر الامبراطورية التى كانت عصر حرب وفتوح خارجية ، انضم إلى هذه الطبقة عدد صغير من صغار ضباط الجيش .

أما الطبقة الوسطى السفلى : فكانت تشمـــل الصناع ، وأرباب الحرف ، وكانت تتكون فى أول الأمر بمن هم أشبه شىء بعمال مرتبطين بالاراضى ، وكانوا يكونون الجزء الأكبر من السلسلة الفقرية للامة ، لأنهم كانوا طبقة المزارعين ، وكانت

هذه الطبقات بحكم العادة وبحكم طبيعة المصرى الجاحدة ، محافظة على كيانها محافظة كبيرة .

وطبقة الكهنة : فى أول الأمر كان رجال الدين من أفراد الشعب . كانوا يقومون بمصالحهم الدنيوية ، ثم يمنحون وقت فراغهم إلى القيام بأعمال الكهانة فى المعابد . ولكن فى أواخر المملكة القديمة ، بدأ الكهنة يكونون لأنفسهم طبقـة قائمة بنفسها . وفى عصر الامبراطورية تراهم وقد أقاموا لأنفسهم طبقة منفصلة عن الشعب ، بعيدة عنه كل البعد ، فى يد أفرادها ثروة طائلة وسلطة أدبية كبيرة .

الفصل العاشر

الفنون والصناعات عند قدماء المصريين

كان تقدم المصريين فى الفنون والصناعات ، خاضعاً لتقدمهم فى المدنية ، وتعدد حاجياتهم المعيشية . يقولون إن المدنية المصرية مدنية دينية ، وهذا صحيح لدرجة كبيرة ، لأن معظم ما وصل إلينا عن مدنيتهم وفنونهم وصنائعهم ، جاء عن طريق معتقداتهم الدينية . فمثلا كون الدين له أثر كبير فى حياة المصريين ، جعلهم دائماً يجتهدون فى التقرب إلى الله ، وهـــذا التقرب كان يمكن الحصول عليه من عدة طرق ، منها بناء المعابد الفخمة أمثال الاقصر والكرنك وادفو ، كل هذه نتيجة لرغبة المصريين فى التقرب الى الله . كذلك اعتقاد المصريين فى الخلود ، وفى البعث بعد الموت ، وفى ضرورة المحافظة على الجسد ، كل ذلك أدى بالمصريين ، إلى الوصول إلى درجة كبيرة من التقدم ، فى فن البناء . أدى بهم إلى بناء مقابر ثابتة ضخمة ، مثل اهرامات الجيزة او سقارة او دهشور ، ومثل المقابر المدهشة المنحوتة فى صخور الجبال ، فى وادى الملوك بطيبة ، كذلك المعتقدات الدينية نفسها

أدت بالمصريين ، إلى تحيط جثـــة الميت ، ومن ذلك وقفنا على شيء من معلوماتهم فى علم الكيمياء .

النسيج : فى العصور العابرة ، كان المصريون يصنعون ملابسهم من الجلود ، ولكن رأينا أنه حتى قبيل انبثاق فجـــر التاريخ فى مصر ، كان المصريون قد تعلموا طريقة غزل ونسج الأقمشة . وجعل المصريون يتقدمون منذ ذلك الوقت فى فن النسيج ، حتى اصبحوا يصنعون أقمشـــتهم من الكتان الرقيق ومن التيل الذى وصفه البروفسر (Petrie) أنه كان يضارع أحسن الأقمشة التيلية المصنوعة الآن .

وفى المتحف المصرى ، أقمشة تيلية يحيل للعين بانها من نوع الحرير ، الذى يسمى الآن سكروته . وكان نساء الفلاحين يقمن بجزء كبير من صناعة الغزل والنسيج فى منازلهن ، ولكن فوق ذلك ، كان هناك معامل حقيقية للغزل والنسيج ، يشتغل فيها عدد كبير من العمال المصريين ، وهؤلاء هم الذين كانوا ســـبباً فى ارتقاء النسيج ، وصنع الأقمشة عنـــد المصريين . وكانوا يصبغون هـــذه الأقمشة بأصباغ لايزال بعضها ثابت اللون إلى الآن .

الحلى والمعادن : كانوا يحسنون سباكة المعادن وتشهد لهم حليهم بالدقة فى الصنع وبحسن الذوق ، فى اختيارهم للاحجار

الثمينة ، التي يستخدمونها فى صنع حليهم . وفى المتحف المصرى ، فى قاعة الحلى ، أشياء مدهشة من المصوغات الفضية والذهبية ، تضارع فى جمـــالها ودقتها أحسن ما يصنع الآن ، فى أكبر معامل أوربا .

فى المملكة القديمة ، لم تبلغ الحلى درجة كبيرة ، خصوصاً وأن الفضة كانت نادرة الاستعمال ، لغلو ثمنها ، ولـكن منذ عصر المملكة المتوسطة ، بدأت الحلى المصرية تصل إلى درجة عظيمة ، من الاتقان ودقة الصنع .

دبغ الجلود : من أقدم الفنون عند قدماء المصريين ، تعلموه فى الوقت الذى كانوا يعتمدون فيه على الصيد . لسد حاجياتهم الاقتصادية . واتخـاذ جلود ما يصطادونه فى صنع الملابس ، ولما تعلم المصريون الزراعة ، وتركوا الصـــيد كأساس لحياتهم الاقتصادية ، لم يتركوا صناعة الجلود كلية ، بل ظلوا يتقدمون فى فن دبغ الجلود ، حتى وصلوا فى العصور المتأخرة ، إلى درجة كـبيرة فى هذا الفن ، وكانوا يصبغون هذه الجلود ، بأصباغ مختلفة ، ويتخذونها فى صنع كثير من لوازم الأثاث ، كمقاعد للكراسى ، أومخدات أووسائد . وفى المتحف البريطانى بلندن عدة أشياء ، من صنع قدماء المصريين وبعضها لايزال محافظا على ألوانه .

الورق : كان المصريون يصنعون الورق من نبات البردي ، الذى كان ينمـــو فى مستنقعات مصر ، فى ذلك الوقت ، وذلك بأن يشقونه إلى شرائح رفيعـــة ، ثم يضعونه جنبا لجنب ، حتى تتكون منه طبقة بالمساحة التى يريدونها ، ثم يضعون فوق هذه الطبقة ، طبقة أخرى تجرى شرائحها فى خط معارض للطبقة الأولى ، ثم يلصقون الطبقتين ، بمادة لاصقة ، ومن ذلك يتكون ورق البردى المشهور ، وكان المصريون يكتبون على هذا الورق بأصباغ مختلفة اللون ، أشهرها الأحمر والأسود ، وكانوا يستخلصون هذه الأصباغ من النباتات .

النجارة : كان تقدم المصريين فى النجـــارة فى عصورهم القديمة ، تقدما مدهشاً ، خصوصا لو تذكرنا قلة الأخشاب الثمينة الموجودة فى مصر .

فى أول الأمر كان بمصر انواع كثـــيرة من الأخشاب ، لوجود أحراش بها ، ولكن هذه الأحراش بدأت فى الانقراض شيئاً فشيئاً ، وفى العصر التاريخى لم نجد بمصر من الأخشاب سوى شجر السنط والنخيل والجميز ، ولذلك فاننا نرى المصريين فى صناعتهم لأثاثهم الثمينة ، لايكتفون بهذه الأخشاب ، بل يستخدمون أخشابا ثمينة ، كالأبنوس من الجنوب ، وخشب الأرز من لبنان . والأثاث الذى اكتشف فى مقبرة توت عنخ آمون ،

يدل على تقدم المصريين فى فن النجارة .

الزراعة عند قدماء المصريين : كانت العوامل الطبيعية فى مصر ، من أهم الأسباب التى جعلت المصريين من أوائل الشعوب ، احترافا للزراعة . فاعتدال المناخ ، وخصوبة الأرض ، والنيل ، كل هذه دفعت المصريين لترك حياة القنص ، والاشتغال بالزراعة ، ولكن فى أول الأمر ، كانت مصر مملوءة بالأحراش والمستنقعات ، ولذلك فان أول مهمة قام بها المصريون ، هى قطع الأحراش ، وردم المستنقعات ، ولذلك انتشر ميدان الزراعة أمام المصريين ولكن . بالرغم من هذا الاتساع ، فان أراضى مصر الزراعية ، ظلت كما هى الآن ، محدودة بالتلال الغربية والشرقية والصحراوات . وكون الأراضى الزراعية محدودة ، أدى بالمصريين إلى استخراج كل ما يمكن استخراجه ، وهذا أدى الى تقدمهم فى فن الزراعة ، حتى سبقوا فيها كثيراً من الأمم الأخرى الزراعية فى العصور القديمة . ومن جهة أخرى ، فان ارتفاع الأراضى الزراعية ، فى كثير من الجهات عن مستوى ماء النيل ، وخصوصا فى أيام التحاريق ، أدى بالمصريين إلى ابتكار الوسائل ، لرفع الماء من مستوى النيل ، إلى مستوى الأراضى الزراعية ، وهذا أدى بهم إلى اختراع (الشادوف) وغيره . ومن جهة ثالثة انخفاض

ماء النيل أيام التحاريق ، جعل المصريين يحفرون ترعاً وخزانات .
ومن الغريب أن المصريين بعد أن وصلوا لهذه الدرجة من التقدم ،
بدأت طبيعة الجمود تتغلب عليهم ، حتى وقفوا عند هذا الحد ،
ولم يتقدموا عنه تقدماً محسوساً إلا فى العصور الحديثة ،
وهذا الجمود الذى شمل الزراعة ، شمل أيضاً كثيراً من الحرف
المتعلقة بالزراعة ، مثل مستخرجات الألبان والزبدة
والجبن والبيض .

البناء : أهم مايستلفت انظارنا من آثار قدماء المصريين ،
بل الجزء الأكبر من مخلفاتهم ، هو مقابرهم ومعابدهم ، وهى
أشياء مبعثرة بكميات كبيرة فى مصر العليا ، لأنهم كانوا يعتقدون
بخلود الروح وبالبعث ، وبضرورة المحافظة على أجسامهم
ومعابدهم ، وهذه المقابر تحوى كثيراً من آثارهم .
وهذا يعلل معنى العبارة القائلة (مدنية المصريين مدنية دينية) .
فضلا عن ذلك ، فان عقيدة المصريين بالخلود وضرورة
المحافظة على آثارهم ، أدت بهم إلى بناء مبان ثابتة . تتحمل
مرور الأزمنة . وبينما قصورهم ومبانيهم الدنيوية كانت تبنى
بالطوب النى ، نراهم يعتنون كل الاعتناء ببناء مقابر خالدة ، حتى
أننا فى عصر الأسرة الثانية ، نرى لأول مرة فى تاريخ الانسان ،
غرفة فى مقبرة مبنية من الحجر . فالرغبة فى المحافظة على أجسامهم ،

كانت أهم العـــوامل التى أدت إلى قـــوة النـــاء ، وإلى بنـــاء الاهـــرامات ، التى انشئت من مصطبـــة ، إلى عدة مصاطب ،كما هى الحال فى الهـــرم المدرج ، وإلى اهرامات ملساء كما هى الحال فى اهرامات الجيزه ؛ وبالطبع فن البناء عند قدماء المصريين ؛ كان خاضعا لدرجات تقدمهم فى المدنية العامة ، التى احتازوها فى العصور المختلفة . وفى العصور العابرة ، كان الجزء الأكبر من مبانيهم ، مصنوع من البـــوص يغطيه طبقة من الطين ، ثم بدأ ينتشر استعمال الطوب المجفف فى الشمس ، ولكنهم من الأسرة الثانيـــة ، بدأوا يستعملون الأحجار فى مبانى مقابرهم ، ومن ذلك الوقت انتشر استعمال الحجر فى مقابرهم المختلفة ، سواء أكانت مصاطب أم اهرامات ، أم سراديب ، وفى بناء المعابد المختلفه . وهكذا استمر فن البناء فى تقدم حتى الاسرة الرابعـــة وأعظم عنوان فى هـذا التقدم هو اهرامات الجيزة الهائلة .

